التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي - مملكة البحرين SDPA 499 العدد 157 السنة الثامنة عشر - ديسمبر 2020

تقرير الرقابة المالية والإدارية 17

توضيح الواضحات

أيها الفريد..
تبقى كأنك لم تمت

33-30

موقفنا

الآمال المنشودة

عبّرت البحرين عن حزنها على رحيل صاحب السمو الملكي الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس مجلس الوزراء، وجرى استذكار ما قدّمه الراحل من خدمات ومنجزات للوطن على مدار عقود، وما نهض به من أدوار في بناء الدولة وأجهزتها المختلفة.

وعبّر البحرينيون أيضاً عن تهانيهم لصاحب السمو الملكي ولي العهد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة على الثقة الملكية السامية بتعيينه رئيساً لمجلس الوزراء، وعن تمنياتهم له بالتوفيق في أداء المهام الكبيرة في المرحلة المقبلة، في مواصلة مسيرة التنمية وتحقيق تطلعات المواطنين في حياة كريمة تلبي حاجاتهم في مختلف المجالات.

وفي هذا السياق جاء ما عبّر عنه المنبر التقدمي من خلال البلاغ الصادر عن مكتبه السياسي، الذي رفع فيه التعازي برحيل المغفور له الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، كما تمنى فيه لسمو ولي العهد رئيس الوزراء التوفيق والسداد في تلبية أماني وتطلعات شعب البحرين وتحقيق كلما ينهض بواقع هذا الشعب في المرحلة المقبلة، ويفتح آفاق جديدة له خاصة في مجالات التنمية والتطور والتحديث وضمان الحياة الكريمة للمواطنين وتحقيق المواطنة الدستورية.

وعبرت جمعيات سياسية، بينها المنبر التقدمي، ومؤسسات للمجتمع المدني وهيئات شعبية مختلفة، عن حرصها على دعم ومساندة سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء في توجهاته الرامية إلى تحقيق تلك الأهداف والتطلعات، وكل ما يصبو إليه شعب البحرين، وتحقيق المصالح العليا للوطن والمواطن.

التحدّيات التي أمام وطننا ليست قليلة، خاصة في ظروف الأزمة الاقتصادية العامة في العالم التي فاقمتها جائحة "كورونا"، وترافقت مع الانخفاض الكبير في أسعار النفط الذي هو مصدر دخلنا الأساسي، كما أننا نقع في إقليم مضطرب يواجه مخاطر مختلفة تهدد الأمن والاستقرار فيه.

ومن هذه الزواية بالذات أكدّ "التقدمي» على أهمية بلوغ المعالجات الصائبة للمشكلات والمعوقات التي تواجه بلادنا على كل الصعد، ومثل هذه المعالجات تتطلب توافقاً بين الإرادتين الشعبية والرسمية، والمؤمل أن سمو ولي العهد رئيس الوزراء الذي يدرك أهمية ذلك، سيواصل جهوده في هذا الاتجاه، وسيحرص على مشاركات شعبية أوسع في رسم القرارات، بما في ذلك السعي لتطوير الأدوات الرقابية والتشريعية لمجلس النواب ليكون شريكاً فعالاً في أداء هذا الدور.

وتتميز البحرين بوجود كوادر كفؤة من أبنائها من الجنسين ومن مختلف الأجيال، بمن فيها الجيل الشاب، وهي قادرة على العطاء والبذل في خدمة الوطن إن وجدت الرعاية والاهتمام والتمكين، ونثق بأن سمو ولي العهد رئيس الوزراء سيعطي هذا الأمر اهتمامه الكبير.

التقدمي

في ندوة مشتركة للتقدمي والقومي بمشاركة الشفافية عن تقرير الرقابة

تكرار المخالفات من بعض الوزارات استهتار بالمال العام ومحاسبة المسؤولين ستعيد ثقة الرأي العام

قال النائب الأول مجلس النواب عبدالنبي سلمان بأن هناك وزراء يقبعون في أماكنهم منذ عشرين سنة، ووزارتهم تعج بالكثير من التجاوزات المالية والإدارية ،وهو ما جاءت به تقارير ديوان الرقابة المالية المتعاقبة. مشيراً إلى أننا: «نتطلع إلى الإدارة الجديدة للحكومة الموقرة برئاسة ولي العهد لأن يكون هناك توجه جديد على مستوى إدارة الدولة».

وتابع:» نعلم جدياً أن صاحب السمو الملكي ولي العهد رئيس الوزراء يمثل القيادة الشابة ولديه تطلع للمستقبل، وجميعاً نتشارك معه هذا الحرص، نتطلع ان يكون هناك إدارة حصيفة للمستقبل تتجاوز كل الأخطاء السابقة التي أدت لكل هذا الهدر في المال العام».

واعتبر سلمان في ندوة مشتركة نظمها المنبر التقدمي ضمن ملتقاه الأسبوعي بالتعاون مع التجمع القومي الديمقراطي، بعنوان «تقرير الرقابة، الجديد القديم، ماذا بعد؟»، أنه:» لو أن الوزارات تابعت بمسؤولية وطنية ما يقع تحت أيديها من ملاحظات لديوان الرقابة المالية لما احتاج مجلس النواب التدخل والتوجه لمساءلة الوزراء فيما يتعلق بملاحظات التقارير". مشيراً إلى أنه: "هناك استهتار من قبل بعض الوزراء بسبب تكرار بعض المخالفات ويتكرر ذكرها في تقارير الرقابة المالية عاماً بعد عام".

إلى ذلك نوه سلمان بأن: «هناك تطور واخذ بالتوصيات من قبل الجهات الوزارية إلا ان هذا التطور غير محسوس من قبل المواطنين. الغرض من وجود جهات رقابية هو أن ينعكس ذلك إيجابيا على المواطنين ومصالح البلد"، وتابع:" ديوان الرقابة المالية لديه الصلاحية لإحالة المتسببين في المخالفات إلى النيابة العامة، الحكومة تؤكد بأنها تحيل المسؤولين إلى النيابة العامة". مؤكداً على أن: "الناس تريد أن تعرف أن هؤلاء يتم محاسبتهم وتتم إحالتهم إلى الجهات القضائية".

ودعا سلمان إلى: "تطبيق القوانين بمسؤولية وحس وطنيين، لأن المنظومة التشريعية صلبة فيما يتعلق بحماية المال العام، وقد جاء في قانون الميزانية العامة للدولة بأن لا زيادة في المصروفات إلا بقانون، لذلك فإننا لا تنقصنا القوانين بقدر ما ينقصها تنفيذها بحرص والتزام".

«سوق العمل» بدون خطة عمل

من جانب آخر، قال عضو الأمانة العامة في التجمع القومي الدكتور حسن العالي إن: «التقرير يتكلم بوضوح عن عدم وجود أي تقارير لمتابعة تنفيذ استراتيجية حوكمة الجهات الحكومية، ولا يوجد خطط للإحلال الوظيفي في الحكومة". موضحاً بأن: "التقرير أشار صراحة إلى أنه لا توجد أي خطة تبين ماهية المهن التي تعطى للعمالة الاجنبية، ولم تضع الهيئة أي خطة وطنية لسوق العمل بحيث نعرف مقدار حاجتنا من العمالة الأجنبية".

وأشار العالي إلى أن:" التقرير يوضح أنه في العام 2019 كان هناك ألف و110 باحث عن عمل في مجال المحاسبة، فيما كانت الوظائف المتوفرة في سوق العمل في هذا المجال 133 وظيفة فقط، أي ما يغطي 12٪ من جموع الخريجين"، وتابع: "أما فيما يتعلق بخريجي القانون والحقوق فإن اعدادهم بلغت في نفس العام 784 خريجا، والوظائف المعروضة كان عدد 17 وظيفة فقط، أي ما نسبته 2،2٪"، منوهاً إلى أن: "هناك فجوة كبيرة بين العرض والطلب الموجود في السوق، فالمئات من الخريجين في بعض التخصصات لا يجدون لهم فرصاً للتوظيف لقلة الشواغر".

هيئة لضبط الدين العام

إلى ذلك، أوضح رئيس الجمعية البحرينية للشفافية شرف الموسوي بأن: «التقرير بعد رفعه لجلالة الملك والسلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، لا ينشر بشكل عام على الموقع الالكتروني للديوان او بأي وسيلة أخرى، وهذا ما كنا نطالب به في الجمعية البحرينية للشفافية في الافصاح عن هذا التقرير بكل تفاصيله بكل شفافية. والقانون لا يسمح للديوان بنشر التقرير على الملأ". مشيراً إلى أنه: "بناء على ما جاء في تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية فلا يوجد تحسن حقيقي في الاقتصاد الوطني، والزيادة في الإيرادات متمثلة في 127 مليون دينار بنسبة 4،6٪، التي جاء ذكرها في التقرير، تعود لسببين رئيسيين هما التحسن النسبي في أسعار النفط والسبب الثاني هو ما أضيف من عبء على المواطنين متمثلاً في ضريبة القيمة المضافة".

وأشار الموسوي إلى أن: "ارتفاع الدين العام أصبح الآن أكثر من 13 مليار دينار، وإذا اضفنا قيمة الديون التي اقترضتها جهات حكومية متنوعة من السوق المحلي، فإن مبلغ الدين العام سيصل إلى أكثر من 15 مليار دينار، وهو ما يرفع نسبة الدين العام من الناتج المحلي إلى 114٪ وهو ما رفع الفوائد على الدين العام". داعياً إلى: "انشاء هيئة مستقلة تراقب الدين العام والعمل على ضبطه".

معرباً عن تعازيه بوفاة الأمير خليفة بن سلمان

التقدمي: التوفيق والسداد لولي العهد رئيساً للوزراء لتحقيق الحياة الكريمة والمواطنة الدستورية

أعرب المنبر التقدمي عبر مكتبه السياسي عن خالص التعازي والمواساة إلى قيادة مملكة البحرين والشعب البحريني بوفاة صاحب السمو الملكي الأمير خليفة بن سلمان آل خليفة طيب الله ثراه. وكان المكتب السياسي للمنبر التقدمي قد عقد اجتماعه الدوري مساء يوم السبت 14 نوفمبر 2020 برئاسة الأمين العام خليل يوسف، وناقش جملة من القضايا المدرجة على جدول أعماله، وفي هذا السياق توقف أمام المستجدات السياسية المحلية والإقليمية والدولية، وناقش باستفاضة مخرجات اجتماع الدورة الخامسة للجنة المركزية الذي عقد في العاشر من الشهر نفسه، والتي تركزت على تعزيز مسيرة التقدمي فى الفترة المقبلة.

كما رفع التقدمي إلى صاحب السمو الملكي ولي العهد رئيس مجلس الوزراء التهنئة على الثقة الملكية السامية بتعيينه رئيساً لمجلس الوزراء، وتمنى لسموه التوفيق والسداد في تلبية أماني وتطلعات شعب البحرين وتحقيق كلما ينهض بواقع هذا الشعب في المرحلة المقبلة ويفتح آفاق جديدة له خاصة في مجالات التنمية والتطور والتحديث وضمان الحياة الكريمة للمواطنين وتحقيق المواطنة الدستورية، وبلوغ المعالجات الصائبة للمشكلات والمعرقلات التي تواجه بلادنا على كل الصعد، وأشار التقدمي إلى أنه وقوى المجتمع البحريني سيكونون داعمين ومساندين لسمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء في توجهاته الرامية إلى تحقيق تلك الأهداف والتطلعات وكل ما يصبو إليه شعب البحرين.

على صعيد متصل، ناقش المكتب السياسي مسار عمل اللجنة التنسيقية بين الجمعيات السياسية، وفي الوقت الذي أبدى فيه ارتياحه لمسار هذا العمل في الفترة الماضية، إلا أنه جدد حرصه واهتمامه على تعزيز العمل بين الجمعيات السياسية من خلال اللجنة التنسيقية وفتح آفاق جديدة للعمل المشترك بما يخدم مسيرة العمل الوطني المشترك في المرحلة المقبلة.

فضفضة

على شفا الموت

عيسى الدرازي

شهدت الفترة خلال عامي 2006 – 2008 حوادث مرورية راح ضحيتها عمال يتمّ نقلهم في مركبات غير ملائمة، حسبما أوضح مدير إدارة التراخيص بالإدارة العامة للمرور حينها بينت الإحصاءات المرورية خلال تلك الفترة تزايد الإصابات والوفيات إثر حوادث شاحنات نقل العمال

هذا الأمر دعا وزير الداخلية حينها لإصدار القرار القرار رقم قرار منع نقل العمال في المركبات غير المخصصة لذلك كان ثمنه أرواح أولئك العمال التي زهقت حتى لا يتحمل صاحب العمل عبء تخصيص مركبة ملائمة لنقلهم من مقار سكنهم لمواقع العمل.

اليوم وبعد أكثر من 10 أعوام على ذلك القرار، يحصد الموت أرواح 4 عمال في حادثتين منفصلتين وفي أقل من شهر، بسبب غياب الإجراءات الرادعة، الحادث الأول راح ضحيته أحد عمال البناء الذي سقط من مبنى قيد الإنشاء ولقي حفته في الحال، فيما الحادث الآخر الأكثر تداولاً كان وفاة 3 عمال حينما كانوا يهمّون بصيانة إحدى قنوات الصرف الصحي، فيما استطاع الدفاع المدني انقاذ زميلهم الرابع من براثن الموت.

النقابي المخضرم وعضو ومجلس النواب عن كتلة "تقدم" سيد فلاح هاشم قال في تصريح له إن: "التشريعات والقرارات المعنية بالصحة والسلامة المهنية ستبقى حبراً على ورق وستؤدى إلى مزيد من الضحايا بين العمال ومزيد من الألم لأهاليهم، إذا لم يتمّ تنفيذها ومراقبة ذلك بجدية". مشيراً إلى أن: "مملكة البحرين سبق لها وأن صادقت على اتفاقية منظمة العمل الدولية رقم (155) لسنة 1981 بشأن السلامة والصحة المهنية وبيئة العمل بالموافقة عليها عبر قانون رقم (25) لسنة 2009، كما وأصدرت قرارات وزارية تنفيذية معنية بالصحة والسلامة المهنية، تتوافق بدرجة كبيرة مع المعايير الدولية، منها القرار رقم 8 لسنة 2013 بشأن تنظيم السلامة والصحة المهنية في المنشآت، وما نصّ عليه من تشكيل لجان مشتركة في جميع مواقع ومنشآت العمل".

وأرجع هاشم ضعف الرقابة على تنفيذ وتطبيق ما تنص عليه من إجراءات وتراخٍ مستمر في المتابعة من الجهات التنفيذية، إلى "قلة العامل البشري في وزارة العمل المعني بمتابعة هذا الموضوع، وعدم تشكيل اللجان المعنية بالسلامة والصحة المهنية في معظم المنشآت والمواقع العمالية".

العمال هم الحلقة الأضعف في هذه السلسلة، وعليه فإن أرواحهم ستقبى على شفا الموت حينما لا ينظر إلى تفعيل تنفيذ التشريعات والقرارات الخاصة بالسلامة والصحة المهنية وبيئة العمل، بجدية وإلتزام أخلاقي أولاً وأخيراً.

محطات مضيئة من نضال حركتنا العمالية - ٢

جواد المرخي

كان الهدف من تشكيل اتحاد العمل البحراني في خمسينيات القرن الماضي هو صون حقوق العمال، والسعي لإقرار تشكيل النقابات العمالية بشكل علني، وقد استجابت حكومة البحرين آنذاك للطلب، وشكّلت لجنة لصياغة مشروع قانون العمل في إبريل من عام 1955.

إلا إن هذا المشروع لم يصدر في حينه، وبقي عامين حبيس الأدراج والمداولات في أورقة المستعمر البريطاني، لتأخير صدوره، تعويلاً على توقف زخم الحركة العمالية، إلى أن صدر القانون عام 1957 الذي نصّ على حرية تشكيل النقابات العمالية، لكن السلطات حالت دون ذلك، حتى مع نهوض الحركة العمالية مجدداً في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، علماً بأن اتحاد العمل البحراني قد حلّ اختياريا في عام 1958 تحت ضغوط المستعمر البريطاني على مجمل الحركة الوطنية والعمالية آنذاك.

مع اشتداد المطالب العمالية في في سبعينيات القرن الماضي، وبالترافق مع الحياة النيابية الأولى ظهرت للعلن أربع نقابات عمالية عام 1974، هي نقابة العاملين في الكهرباء، نقابة العاملين في الصحة، نقابة العاملين في شركة "ألبا"، ونقابة العاملين في البناء والمهن الإنشائية.

وبعد حلّ البرلمان الأول في عام 1975 صدر قانون عمل جديد في عام 1976 خلا من النص على أحقية العمال في تشكيل النقابات، وتزامن ذلك مع سريان قانون أمن الدولة، للتنكيل بالقوى الوطنية والقيادات النقابية، واستمرّ هذا الوضع حتى عام 1988، حيث صدر أمر بتشكيل لجان عمالية للتخفيف من الانتقادات الداخلية والخارجية، وسمح بقيام اللجنة العامة لعمال البحرين عوضا عن الاتحادات العمالية، فيما استمر قمع الحركة الوطنية الذي بلغ ذروته في الهجمة الأمنية على مناضلي جبهة التحرير الوطني عام 1986.

وبعد تفاقم الأزمة السياسية في البلاد في التسعينيات، جاءت مرحلة الإنفراج السياسي مع طرح مشروع ميثاق العمل الوطني من قبل جلالة الملك في عام 2000 للتصويت، حيث حظي بدعم غالبية القوى الوطنية والشعبية، وعلى أثر ذلك صدر في عام 2002 المرسوم الملكي بالسماح لتشكيل النقابات العمالية في البحرين، لكن مع استثناء العاملين في القطاع الحكومي.

في عام 2002 صدر قانون العمل الحالي والذي يعدّ من اسوأ قوانين العمل التي صدرت في البحرين بحسب نشطاء العمل النقابي والقانونيين لأسباب عديدة، بينها إلغاء القانون لأولوية العمالة الوطنية في التوظيف، مما ساهم في تهميشها في القطاعين العام والخاص، وساعدت في ذلك خصخصة مرافق مهمة في القطاع العام، ما أدى إلى الزيادة الحادة في نسبة البطالة خصوصاً في صفوف خريجي الجامعات والتخصصات العلمية، مع إغراق البحرين بالعمالة الوافدة، مما اضطر الكثيرون من العاطلين لقبول العمل بعقود مؤقتة، بأجور متدنية، ودون أي ضمانات.

الموت يحصد 4 عمال في مواقع عملهم خلال 3 أسابيع

التقدمي

حصد الموت 4 عمال في حادثين منفصلين خلال ثلاثة أسابيع فقط، ففي الحادثة الأولى في 26 أكتوبر لقي عامل بناء حتفه بعد سقوطه من منى قيد الإنشاء في منطقة كرزكان، وروى زملائه بأنهم حينما كانوا يقومون بأعمالهم اليومية فوجئوا بزميلهم وقد اختل توازنه وسقط من علو وقد أصيب بإصابات بليغة أدت إلى وفاته في موقع الحادث. أما الحادث الآخر في 16 نوفمبر، بعد 3 أسابيع، فقد ذهب ضحيته 3 عمال أثناء قيامهم بأعمال الصيانة لأحد قنوات الصرف الصحي بمنطقة بني جمرة، حسبما جاء في البيان الرسمي لوزارة الداخلية. وأوضح البيان إن الدفاع المدني توجه إلى موقع الحادث بأربع آليات و18 ضابطا وفرداً ليباشروا محاولة إنقاذ العمال التي أسفرت عن انقاذ عامل رابع كان معهم.

على صعيد متصل، أمر رئيس الوزراء وزارة الداخلية باتخاذ الإجراءات اللازمة بمباشرة التحقيق الفوري حيال واقعة وفاة ثلاثة من عمال الصرف الصحي أثناء قيامهم بأعمال الصيانة بمنطقة بني جمرة، والتأكد من مدى الالتزام بمعايير السلامة ورفع تقرير حول ذلك لمجلس الوزراء بأسرع وقت ممكن.

من جانبه، أشار النائب عن كتلة «تقدم» البرلمانية سيد فلاح هاشم، إلى أن: «حوادث العمل بلغت وفق تقارير وزارة العمل التي جرى التحقيق فيها من قبل قسم السلامة المهنية لعامي 2018 و2017. فقط: 767 حادث، منها 53 حادث وفاة و338 إصابة جسيمة".

وشدّد هاشم على أنه "ستبقى التشريعات والقرارات المعنية بالصحة والسلامة المهنية حبراً على ورق وستؤدى إلى مزيد من الضحايا بين العمال ومزيد من الألم لأهاليهم، إذا لم يتم تنفيذها ومراقبة ذلك بجدية"، لافتاً إلى أن " البحرين سبق لها وأن صادقت على اتفاقية منظمة العمل الدولية رقم (155) لسنة 1981 بشأن السلامة والصحة المهنية وبيئة العمل بالموافقة عليها عبر قانون رقم (25) لسنة 2009، بالإضافة إلى ما صدر من قرارات وزارية تنفيذية معنية بالصحة والسلامة المهنية".

500 وظيفة قادمة في القطاع النفطي

قال مدير عام شؤون النفط والغاز جاسم الشيراوي إن الشركات النفطية بصدد العمل على مشاريع كبيرة منها تحديث مصفاة «بابكو» وهو من أكبر المشاريع في تاريخ البحرين بتكلفة تزيد عن 5 مليارات دينار. موضحا إنه من المؤمل أن توفر هذه المشاريع 500 وظيفة في القطاع النفطي.

البلاد: 27 اكتوبر 2020

منع تولي الاجانب منصب مدير توظيف بشركات الحكومة

الأجانب مناصب

وافق مجلس النواب على المقترح برغبة بشأن عدم تولي الاجنب لمنصب مدير الموارد البشرية في الجهات الحكومية أو الهيئات والشركات المملوكة للدولة والتي تساهم فيها الدولة بأكثر من 50٪ من رأس المال. كما مرر المجلس الاقتراح برغبة بشأن رفعة البحرنة ل 95٪ في الشركات التي تملك الحكومة فيها حصة 50٪ في الشركات التي تملك الحكومة فيها حصة 50٪ فأكثر في 3 سنوات.

البلاد 27 اكتوبر 2020

كاريكاتير
خالد الهاشمي

نقلاً عن حساب الفنان على «انستجرام»

6944 مواطناً متقاعداً خلال عام «كورونا»

تقاعد

كشفت احصاءات الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي عن تراجع أعداد الموظفين في القطاع الحكومي من المواطنين خلال الفترة من منتصف العام الماضي وحتى منتصف العام الجاري بعدد 1581 موظفاً. واظهر التقرير الإحصائي ربع السنوي للهيئة أن أعداد موظفي القطاع العام خلال الربع الثاني من العام الماضي بلغت 49125 موظفاً، مقابل 47544 موظفاً في الربع الثاني من العام الجاري.

ورصد التقرير فيما يتعلق بأعداد المتقاعدين من القطاع العام زيادة بمقدار 3926 من أصحاب المعاشات من الأحياء والمتوفين حيث بلغ إجمالي عدد المتقاعدين في الربع الثاني من العام الماضي 35296 مواطناً مقابل 39222 متقاعداً في الربع الثاني من العام الجاري.

وفيما يتعلق بالقطاع الخاص، فقد سجل القطاع ارتفاعاً في أعداد موظفيه بمقدار 3266 موظفاً، حيث كانت أعداد المواطنين العاملين في هذا القطاع في الربع الثاني من 2019 تبلغ 94601 موظف، مقابل 96967 موظفاً في الربع الثاني من 2020.

واظهر التقرير زيادة بمقدار 3018 مواطناً إلى أعداد المتقاعدين من أصحاب المعاشات من الأحياء والمتوفين، إذ بلغ عدد المتقاعدين في العام الماضي 40678 مواطناً، فيما بلغت أعدادهم خلال العام الجاري 43696 مواطناً.

وبالإشارة إلى ما سبق، يصبح مقدار الزيادة في أعداد الموظفين في القطاعين العام والخاص خلال الفترة المذكورة 785 موظفاً فقط، مقابل زيادة بمقدار 6944 مواطناً متقاعداً ما يعادل 8،8 أضعاف مقدار الزيادة في المؤمن عليهم.

البلاد: 20 نوفمبر 2020

محطات التقرير الـ 17 للرقابة المالية والإدارية والسيناريوهات المحتملة

لغياب المجتمع المدني انعكاسات سلبية على المواضيع المطروحة للنقاش العام

يمرّ تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية بعد إصداره بعدة محطات، حددها قانون إنشاء الديوان. حسب المادة (١٩) فإنه على الديوان «تقديم التقرير إلى الملك ومجلس الوزراء ومجلس النواب، وذلك قبل الموعد المقرر لاعتماد الحساب الختامي الذي يتعلق به ذلك التقرير»، وعليه فإن رئيس الديوان رفع التقرير السابع عشر للسنة المهنية (٢٠١٩–٢٠٢٠) لجلالة الملك في ٢٤ أكتوبر من العام الجاري، وبعدها في ٢٦ أكتوبر رفع إلى مجلس الوزراء، فيما تسلّم المجلس التشريعي بغرفتيه التقرير في ٢٨ أكتوبر.

التقرير السابق أحال ١٠ جهات حكومية للنيابة العامة

تأكيد اللجنة المالية بالنواب على دراسة التقرير فوراً

في الثاني من نوفمبر قرر مجلس الوزراء إحالة تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية إلى اللجنة التنسيقية للإشراف على التحقق من الملاحظات والتوصيات الواردة فيه وفقاً للآلية المتبعة أثناء مراجعة التقارير السابقة لديوان الرقابة المالية والإدارية، وكذلك في ذات اليوم، ولدى اجتماع هيئة المكتب بمجلس النواب أكدّت رئيس مجلس النواب حرص المجلس النيابي على دراسة ومناقشة تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية السنوي السابع عشر للسنة المهنية 2019–2020 بكل مهنية ومسئولية، وبما يحقق الحفاظ على المال العام، والإرتقاء بجودة خدمات مؤسسات الدولة، وتعزيز الدور الرقابي والتشريعي، وقررت هيئة المكتب إحالته التقرير إلى اللجنة المالية لدراسته وإعداد تقريراً عنه متضمن مرئيات وتوصيات اللجنة لعرضها على المجلس.

وبعد أسبوع من قرار مجلس الوزراء لإحالة التقرير إلى اللجنة التنسيقية التي يرأسها ولي العهد، اجتمعت اللجنة في 10 نوفمبر وناقشت تقرير الديوان دون أن يشير الخبر الرسمي لأي تفاصيل.

ماذا بعد؟

على ضوء صدور تقرير ديوان الرقابة والمالية، نقلت الصحف تصريحات لرئيس اللجنة المالية بمجلس النواب ونائبه في اللجنة، حيث تعهد رئيس لجنة الشؤون المالية والاقتصادية بمجلس النواب بدراسة التقرير بتفاصيله، مؤكداً حرص اللجنة على دراسة جميع المخالفات والملاحظات الواردة في التقرير، وتقديم توصياتها بأسرع وقت ممكن خاصة بشأن تفعيل الأدوات الرقابية؛ من أجل أن يتسنّى للنواب تفعيل أدواتهم الدستورية بما يتناسب وحجم المخالفات، والتي سيقرّر المجلس ماهية هذه الأدوات ككيان واحد.

من جانبه، أكد نائب رئيس اللجنة إنهم سيسعون إلى دراسة التقرير بشكل مباشر دون تأخير، إذ سيكون التعامل في هذا الدور مع التقرير بشكل مختلف عن الدور السابق، إذ سيتم الانتهاء منه بأسرع وقت ممكن وعرضه على المجلس؛ وذلك لأن ميزانية الدولة ستُقرّ في هذا الدور ولا بد من إفراد مساحة أكبر لها.

ليست اللجنة المالية والاقتصادية هي الجهة المعنية الوحيد بمراجعة ملاحظات ديوان الرقابة المالية والإدارية، فقد دأب مؤخراً مجلس الوزراء بإحالة التقرير إلى اللجنة التنسيقية التي يرأسها ولي العهد لمراجعة التقرير وإصدار ما ترتئيه من توجيهات.

ماذا حدث للتقرير السابق؟

أسفرت مراجعة اللجنة التنسيقية للتقرير السابق لديوان الرقابة المالية والإدارية بإحالة 10 جهات حكومية إلى النيابة، و26 ملاحظة تمت إحالتها إلى اللجنة الوزارية للشؤون القانونية والتشريعية من أجل تشكيل لجان تحقيق داخلية، و406 ملاحظات إجرائية تمّ اتخاذ الإجراءات الإدارية المناسبة حيالها من أجل العمل على عدم تكرارها.

على صعيد مجلس النواب فقد صوّت في إبريل الماضي على حزمة من التوصيات على خلفية مناقشة تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية السابق، وأوصى بتشكيل 8 لجان تحقيق برلمانية حول عدد من الملاحظات الواردة في التقرير بشأن وزارة التربية والتعليم، جامعة البحرين، وزارة الشباب والرياضة، وزارة العدل والشؤون الإسلامية، شركة ألمنيوم البحرين «ألبا»، وشركة نفط البحرين «بابكو»، وشركة البحرين لمطاحن الدقيق، بالإضافة إلى طلب التحقيق في تدنّي نسبة الصرف على المشاريع الحكومية. كما أوصى المجلس بإحالة 4 جهات للنيابة العامة وهي وزارة الصحة، ومجلس المناقصات والمزايدات، وشؤون الجمارك، وشركة تطوير للبترول، كما أوصت باستجواب الوزير المسؤول عن معهد الإدارة العامة «بيبا». وانتهى نقاش المجلس إلى دعوة الحكومة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لاسترجاع الأموال المهدرة الواردة في التقرير.

دور الانعقاد الحالي والمهمة الصعبة: الرقابة المالية - الميزانية العامة - الحساب الختامي

سيناريوهات محتملة

ثلاثة مسارات سيأخذها تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية السابع عشر، على ضوء على خلص له التقرير السابق للديوان، وكيفية تعاطي الجهات المعنية مع ملاحظاته وتوصياته. المسار الأولى وهو الأسرع والأكثر فاعلية حسبما يراه مراقبون هو ما ستخلص إليه اللجنة التنسيقية برئاسة ولي العهد من توصيات بناء على مناقشة التقرير، وستعرض هذه التوصيات على مجلس الوزراء الذي سيصدر التوجيه بشأنها، وقد تشمل هذه التوصيات الإحالة إلى النيابة العامة إذا كانت المخالفة جسيمة، أو تشكيل لجنة تحقيق داخلية لها، او التوجيه باتخاذ إجراءات إدارية معنية لتفادي تكرار تلك المخالفات.

أما المسار الثاني، فهو ما ستخلص إليه اللجنة المالية والاقتصادية بمجلس النواب التي بدأت بالفعل في إعداد تقريرها الخاص على خلفية تسلمها لتقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية، وفي والوقت الذي سيعاني المجلس خلال دور الانعقاد الحالي من كثرة المشاريع والقوانين المحالة له، وليس آخرها تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية ولكن كذلك هناك ينتظر الإقرار تقرير الحساب الختامي للدولة والميزانية العامة للدولة للسنتين المالتين المقبلتين، وذلك فإن الملفات على طاولة اللجنة المالية بمجلس النواب ليس بالهينة وتقع على رئيسها إدارة تلك الملفات بحرفية عالية وفي وقت قياسي وهي ما تبدو مهمة ليست باليسيرة. وعلى افتراض ان اللجنة أصدرت تقريرها خلال دور الانعقاد الحالي أي قبل فض دور الانعقاد في يونيو المقبل، فإنه يترتب على المجلس وخلال 7 أشهر، مناقشة التقرير والتصديق على توصياته، ورفعها للحكومة ولاحقاً في ذات الوقت أيضاً ترجمة التوصيات التي صادق عليها إذا ما تطرقت لتشكيل لجان تحقيق برلمانية.

أما المسار الثالث فهو مسار الرأي العام ومؤسسات المجتمع المدني والجمعيات السياسية، إلا أن هذا المسار قد وضعت أمامه العقبات والعثرات، وقد غيب دور تلك المؤسسات شيئاً شيئاً خلال السنوات الأخيرة، وتوقفت تلك المؤسسات لأسباب عدة من المشاركة الفاعلة في كل ما يختص بالشأن العام.

ويرى مراقبون أن غياب المجتمع المدني عن موازين القوى في الساحة السياسة المحلية له انعكاسات سلبية على المواضيع المطروحة للنقاش العام، ذلك لأن شريحة كبيرة يتمّ تغييب رأيها، وهو ما يفسر التعاطي السلبي من قبل الرأي العام، وخصوصا أن مؤسسات المجتمع المدني زاخرة بالطاقات الوطنية المخلصة والعقول المهنية الموضوعية ذات الرأي السديد في كثير من المواضيع المتصلة بالمناقشات العامة، ولذلك فإنه من المهم إعادة الروح إلى مؤسسات المجتمع المدني لتأخذ موقعها الصحيح في العملية الديمقراطية والنقاش السياسي العام في البلد، لما له من اعتبارات إيجابية على العملية السياسية ككل.

محطات تقرير ديوان الرقابة المالية والادارية الـ ١٧

إعداد تقرير ديوان الرقابة السنوي السابع عشر للسنة المهنية (٢٠١٩/٢٠٢٠)

24 أكتوبر 2020

رفع التقرير لجلالة الملك

26 أكتوبر 2020

رفع التقرير إلى النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء

28 أكتوبر 2020

تسليم التقرير لرئيسة مجلس النواب

28 أكتوبر 2020

تسليم التقرير لرئيس مجلس الشورى

2 نوفمبر 2020

مجلس الوزراء يحيل التقرير إلى اللجنة التنسيقية للإشراف على التحقق من الملاحظات والتوصيات الواردة فيه وفقاً للآلية المتبعة أثناء مراجعة التقارير السابقة.

2 نوفمبر 2020

إحالة التقرير من هيئة المكتب بمجلس النواب إلى اللجنة المالية.

10 نوفمبر 2020

اللجنة التنسيقية ناقشت اللجنة تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية ٢٠١٩-٢٠٢٠

تقرير ديوان الرقابة

الدين العام يلتهم الناتج المحلي بـ 101.2% ووزارات اقترضت 1.8 مليار دينار دون إدراجها

كتب عيسى الدرازي

أصدر ديوان الرقابة المالية والإدارية تقريره السابع عشر للسنة المهنية (٢٠١٩–٢٠٢٠)، وضم التقرير كعادته جملة من الملاحظات والتوصيات على أداء عمل الجهات والمؤسسات الرسمية والشركات شبه الحكومية في البلد. وعلى الرغم من وصف بعض المتابعين بالتقرير الحالي بـ «الرشيق» مقارنة بالتقارير السابقة التي سبقته والتي كشفت مبالغ طائلة مهدرة من المال العام، واجراءات ادارية مريبة، دفعت مجلس الوزراء لإحالتها للنيابة العامة ليأخذ المسار القضائي المتسببين في تلك المخالفات لطريق المسائلة، إلا ان التقرير الحالي لم يخلو من مخالفات وملاحظات التي كشفت أيضاً عن هدر للمال العام وتجاوزات إدارية في عدة جهات رسمية، فيما يعد من أهم ما كشفه التقرير هو حجم الدين العام من الناتج المحلي الذي بلغ ١٠١,٢٪ للعام ٢٠١٩.

الدين العام متصاعد

ذكر التقرير أن الدَّين العام بلغ حتى نهاية العام 2019 حوالي 13.6 مليار دينار، فيما بقيت فوائد القروض المدفوعة على المستوى نفسه بالمقارنة مع العام 2018، حيث بلغ إجمالي فوائد القروض المدفوعة في العام 2019 حوالي 644 مليون دينار. هذا وبلغت نسبة فوائد القروض المدفوعة في العام 2019 من إجمالي إيرادات الدولة حوالي 22٪.

كما بيّن التقرير قيام بعض الوزارات والجهات الحكومية بالاقتراض المباشر من المصارف المحلية والصناديق الخارجية دون أن يتم إدراج ديونها ضمن رصيد الدَّين العام، وقد بلغت القروض المستحقة على تلك الجهات والتي لم تدرج ضمن رصيد الدَّين العام للعام 2019 حوالي 1.8 مليار دينار.

وأوضح التقرير بأن قيام وزارة المالية والاقتصاد الوطني وبعض الجهات والشركات الحكومية قامت بالاقتراض المباشر من الصناديق الخارجية دون أن يتم إدراج ديونها ضمن الرصيد العام المسجّل بالوازرة لا يعكس الصورة الحقيقية لحجم الدين العام والالتزامات المترتّبة على ذلك مستقبلًا.

١٢٧ مليون مستحقات للكهرباء

أظهر التقرير ان لهيئة الكهرباء والماء مبالغ مستحقة بلغت 127 مليون دينار، كما ان الهيئة لم تقم باتخاذ أية إجراءات تجاه بعض المشتركين المتخلفين عن سداد المبالغ المستحقة عليهم بالرغم من تراكمها لفترات تجاوزت في إحدى الحالات 12 سنة، مما يخالف دليل الإجراءات المالية، ولا يساعد على إلزام المشتركين بسداد المبالغ المستحقة عليهم. كشف تقرير أن حوالي 56٪ المتأخرات المستحقة للهيئة تجاوزت أعمارها السنة.

يستأجر بـ ٧ ويدفع مليون

أشار التقرير إلى أن الشركة المستفيدة من المحجر الحكومي وقعت عقداً مع وزارة الاشغال والبلديات بقيمة 7.6 مليون دينار، إلا ان الشركة حوّلت مبلغ مليون دينار فقط من أصل المبلغ المتفق عليه أي ما نسبته 14٪ فقط من القيمة المقدرة بالعقد. فيما تخلفت الشركة المنتفعة بالمحجر الحكومي عن سداد 6.6 مليون دينار.

٥ نواب فقراء

كشفت ملاحظات التقريرعن تلقي 5 من أعضاء مجلس النواب دعماً مالياً من وزارة التنمية الاجتماعية دون وجه حق. وبحسب التقرير فإن ضعف إجراءات التنسيق ما بين الوزارة والجهات الحكومية الأخرى ذات العلاقة، أدت لتلقي 11 عضواً بلدياً و500 من مدربي السياقة و123 من أصحاب مكاتب المحاماة، ذات الدعوم المالية.

وبيّن التقرير وجود حوالي 22 ألف مستفيد من المساعدات الاجتماعية مصنفين بحسب بيانات هيئة المعلومات والحكومة الإلكترونية كمتزوج أو مطلق أو أرمل، في حين لا توجد لهم أي سجلات في الجهة المعنية بتوثيق حالتهم الاجتماعية المتمثلة في وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، بالإضافة إلى عدم تحديث الحالة الاجتماعية لبعض المستفيدين من المساعدات الاجتماعية في سجلات الهيئة وفقًا للتغيرات المسجلة في وزارة العدل، الأمر الذي لا يمكّن الوزارة من التحقق من صحة الحالة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد، وقد يترتب عليه صرف المساعدات الاجتماعية لغير مستحقيها.

٦٤ ألف عامل غير نظامي

أشار التقرير إلى وجود 64 ألف عامل غير نظامي في سوق العمل المحلي حتى 31 أكتوبر من العام الماضي. مشيراً إلى أن هيئة تنظيم سوق العمل لم تستجب لتوصية مجلس إدارتها بدراسة وتقييم نظام تصريح العمل المرن منذ بداية العمل به وإعداد تقرير بشأنه. وأكد التقرير على الحاجة إلى وضع وتنفيذ خطة وطنية لسوق العمل كل سنتين تتضمن الاستراتيجية والسياسة العامة بشأن تشغيل العمالة الوطنية والأجنبية، وذلك تماشياً مع أحكام الفقرة (أ) من المادة (4) من قانون تنظيم سوق العمل، ولضمان تماشي نظام التصريح المرن مع توجهات الدولة بشأن سوق العمل وأنه يأخذ في الاعتبار جميع الجوانب المتعلقة بتنفيذه والتي من شأنها زيادة فرص تحقيق أهدافه المنشودة. مشيراً إلى ان غياب دراسة وتقييم نظام تصريح العمل المرن، لا يمكن الهيئة من الوقوف على مدى تحقيق أهداف النظام وتحديد آلية اسباب تحول دون ذلك ومعالجتها.

الأدنى خليجياً

دعا التقرير إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي لمواجهة الأزمات التي قد تعيق استيراد المواد الغذائية والسلع الأساسية. وبين التقرير بأن نسبة الأمن الغذائي في البحرين بلغت حوالي 67٪ وهي بذلك تعتبر الأقل بالمقارنة بنظرائها في دول مجلس التعاون، والتي تتراوح نسبها بين 81٪ و68٪، وفقا للمؤشر الدولي للأمن الغذائي لسنة 2019، كما تبين في هذا الخصوص أن نسبة الإنتاج المحلي من اللحوم والدواجن والبيض لا تغطي سوى نسبة 10٪ و48٪ و23٪ على التوالي من حجم الاستهلاك، الأمر الذي يشير إلى الحاجة إلى تعزيز مساهمة القطاع في الأمن الغذائي خلال السنوات القادمة.

٩٠٪ قروض لبنك "التنمية" غير محصلة

أظهر التقرير أن القيمة الإجمالية للمتأخرات المستحقة لبنك البحرين للتنمية عن القروض بلغت حوالي 24 مليون دينار، 90٪ منها تخصّ قروضًا تخلف أصحابها عن السداد منذ فترة تجاوزت السنة. وأشار التقرير أن البنك لا يقوم بتقديم الشيكات المرتجعة لبعض المقترضين إلى مركز الشرطة، بالرغم من عدم استجابتهم ومرور فترات على توقفهم عن السداد وصلت في إحدى الحالات إلى قرابة 4 سنوات.

وذكر التقرير أن البنك لم يرفع دعاوى قضائية ضد أصحاب 553 قرضًا بلغت قيمة المتأخرات المستحقة عنها حوالي 13.5 مليون دينار كما في 29 فبراير 2020، تخلف أصحابها عن السداد لمدة تزيد على 90 يومًا، 96٪ من قيمتها مستحقة منذ أكثر من سنة.

الرقابة المالية والادارية

وصـلاحيـات مجلـس النُـوّاب

لا يخلو العمل في القطاع العام من المخالفات والتجاوزات والأخطاء وشبهات الفساد فهذه طبيعة العمل. الطبيعة البشرية تجعل مثل هذه الممارسات واقع يستوجب التعامل معها دون القبول بها. تنقسم المخالفات بشكل عام الى ثلاثة اقسام. مخالفات ناجمة عن قصور في المنظومة السياسية والادارية ومؤسساتها وسياساتها. ومخالفات نتيجة عدم التزام المسئولين بالانظمة. ومخالفات صادرة عن تصرفات واجراءات فردية، أو جراء تعاون مجموعة من الأشخاص، على مستويات مختلفة من المسئولية، لإخفاء آثار التجاوزات أوإلباسها لباساً شرعياً، وهذه حالة فساد صارخ وهو أخطر الأنواع خصوصاً، إذا تمتع بحماية من جهات نافذة. وكل من هذه الأنواع الثلاثة يحتاج إلى معالجات مختلفة.

د. محمد الكويتي

المخالفات الواردة في تقارير ديوان الرقابة المالية والادارية في معظمها من النوع الاول والثاني ولم تكشف التقارير المنشورة عن اي تجاوزات من النوع الثالث.

يقول رئيس اللجنة المالية النائب محمود البحراني بأن اللجنة ستقوم بدراسة متأنية للمخالفات الواردة في التقرير وستقدم توصياتها للمجلس بأسرع ما يمكن، ويقول بأن الأمل كان معقوداً على تركيز التقرير على تجاوزات المناقصات وقضايا الفساد والتجهيزات الإدارية الكبرى، لكنه لم ير ذلك في التقرير. أما رئيس اللجنة السابق على اسحاقي فيرى أهمية التعامل مع التقرير بشكل مختلف؟ هذا الاختلاف ينحصر فقط في سرعة الانتهاء منه! لأن هناك ميزانية تنتظرهم لإقرارها، وهذا عائق إجرائي.

النائب أحمد السلوم يتمنى مستوى أعلى من الشفافية في التعامل مع المال العام. ويضيف بأن تقرير هذا العام قدّم توصيات نوعية تختلف عن سابقاتها، ويعد بأن اللجنة ستعمل على تفعيل المحاسبة والمساءلة لفرض الإلتزام. أما النائب أحمد العامر فإنه يبدو غير متفائل بمخرجات دراسة التقرير بسبب صعوبة القرار في أي الأدوات تستخدم مهنياً، وأن النواب غير ملزمين كأفراد بأي أداة برلمانية، ولا يوجد اتفاق على أي الأدوات أفضل. بعبارة اخرى لا يثق بقدرة المجلس في اتخاذ قرار. وهذا عائق بنيوي.

أظهرت تصريحات النواب صعوبات اجرائية، ومشاكل التزام، ومعوقات بنيوية تقف عائقاً في تفعيل الأدوات الدستورية. وتطرح أسئلة حول ماهو المانع في تفعيل الأدوات الدستورية سابقاً، ولماذا بعد أكثر من عقد من الزمن لا يطرح هذا السؤال في المجلس كمناقشة عامة علنية؟ وثانياً: لماذا لا توجد إرادة جمعية لتفعيل ماهو متاح من أدوات؟ وثالثاً: هل الأدوات الدستورية كافية لمعالجة التجاوزات؟ يعول رئيس اللجنة المالية النائب محمود البحراني على تقديم توصيات بشأن المخالفات والتجاوزات، ويشير إلى استخدام الأدوات الدستورية من قبل المجلس ككيان واحد.

هذه الادوات (المناقشة والسؤال والتحقيق والاستجواب) كانت متوفرة منذ بداية المجلس ولم تتمكن من معالجة التجاوزات، فكيف الحال الآن وقد تمّ اضعافها في البرلمان السابق والحالي؟

المجلس مطالب بإعادة النظر في هذه الأدوات ورفع قدرته على حماية المال العام، ليس فقط في الميزانية العامة ولكن في جميع ايرادات الدولة والأملاك العامة، أي المال العام بجميع مكوناته الثلاثة. كذلك هو مطالب بمراقبة أداء الحكومة في تحقيق أهداف التنمية ورفع مستوى المعيشة وعدالة توزيع الثروة وتكافؤ في تحمل الأعباء الضريبية التي أصبحت أمراً واقعاً. وبالتالي فإن السؤال هل مجلس النواب بأدواته الدستورية الحالية قادر على التعامل مع تحديات تحسين الأداء ومراقبة المخالفات المتعلقة بالميزانية العامة وإيرادات الدولة وأملاكها؟ أم نحن بحاجة إلى مؤسسات اضافية وسياسات أخرى ومقاربة مختلفة لقضايا المال العام؟

تُبرز المخالفات والتجاوزات في التقارير حاجة لأدوات بنيوية ودستورية لرفع كفاءة الرقابة. لكن الأهم هو تغيير في المجلس النيابي نفسه من حيث القانون الانتخابي لتعديل التركيبة في المجلس ليكون للجمعيات السياسية دور أكبر مع تمثيل أفضل لفئات المجتمع والطبقة العاملة والجمعيات المهنية وتقليل الدوائر الانتخابية إلى أقصى حد بما لا يزيد عن خمس، ورفع مستوى صلاحيات المجلس في المساءلة ضمن رؤية شاملة لتقوية المجلس بشكل عام.

حينها يمكن رفع مستوى الحوكمة والتدقيق الداخلي وإعادة تصميم بعض العمليات وإنشاء هيئة لمكافحة الفساد. كل هذه المفاهيم وغيرها يمكن الإستفادة منها في طرح الحلول ضمن منظومة إدارية متكاملة منها: أولاً؛ انشاء جهاز تخطيط على مستوى الحكومة يضع أهداف بمشاركة مجتمعية ومؤشرات أداء متفق عليها مسبقاً، وتكون خاضعة للمساءلة. ثانيا؛ لا يمكن للمساءلة أن تؤتي نتائجها دون أن تتمتع المنظومة السياسية والإدارية بقدر من الشفافية تتيح للمجتمع متابعة أداء المؤسسات والوزارات والحكومة بشكل عام. غياب هذه الشفافية تؤدي إلى كثرة التكهنات وتعاظم الإتهامات وزيادة التشكيك في الإنجازات. ثالثاً؛ لكي تكون الشفافية فاعلة والمساءلة مؤثرة يتطلب الأمر توفر المعلومات وحرية التعبير في مناقشة الأداء والتقييم الموضوعي المبني على المعلومات الموثقة. رابعاً؛ في تقديم مقترحات الحلول يجب إدراك أن الغاية من الحوكمة ومن المنظومة السياسية والإدارية الفاعلة هي تحقيق الأهداف الاستراتيجية لتقدم وتنمية المجتمع سياسياً واقتصادياً وثقافياً ورفع مستوى الرفاهية للمواطن وضمان الأمن والاستقرار في الدولة.

تقرير الرقابة .. حقاً ماذا بعد ..؟!

الى جانب ما يغرق البحرينيين من هموم، يأتى التقرير السابع عشر لديوان الرقابة المالية والادارية لعامي ٢٠١٩ – ٢٠٢٠ ليثير مجدداً المواجع، ويضيف اليهم هماً، وأي همّ! ولأنهم ألفوا الهموم، وباتوا على قناعة بأن ردود أفعالهم على أي تقرير جديد يصدره ديوان الرقابة لن يجدى، وباتوا يشعرون أن كل ردود الفعل لم ولن تكون مثمرة ومجدية فى يوم من الأيام، ربما لهذا السبب كان استقبالهم للتقرير الجديد فاتراً بشكل غير مسبوق. لم ينشغلوا به كعادتهم كل عام، لا من قبل الصحف، ولا من الكتّاب، ولا من النشطاء، ولا من غيرهم ممن تعوّدنا منهم ردود فعل على كل تقرير يصدر، بما فى ذلك مواقع التواصل الاجتماعي، مرّ بما يشبه اللامبالاة، كأن ثمة قناعة بأن باب الأمل موصود، وان أمر محاسبة مسؤول معدوم كأنه قدر مكتوب، او فى مصاف التمنيات والمستحيلات، وهذا أمر جدير بالدراسة والتحرى والمراجعة!

خليل يوسف

حتى أولئك النواب الذين دأبوا على استثمار كل تقرير جديد يصدر ويبدون ضجرهم، ويستعيضون عما يجب أن يقوموا به تحت قبة البرلمان بالشوشرة واستثارة المشاعر، والتهديد والوعيد، وإغداق الوعود، والاستعراضات الاعلامية الخالية من كل المفاعيل، كفّوا هذا العام عن قول ما سمعناه وقرأناه مراراً وتكراراً ولم يعد يشدّنا.

هؤلاء يتناسون أن جبهة المواجهة الحقيقية على التجاوزات والمخالفات، وتفعيل آليات المساءلة والمحاسبة رغم كل القيود، محلها تحت قبة البرلمان، ولكن يلاحظ بأنه حتى هؤلاء النواب لم تكن ردود أفعالهم هذه السنة كالمعتاد، أو بنفس الزخم المعهود، ربما هى منهجية جديدة من قبلهم فى التعاطي مع التقرير يواكبون بها المنهجية الجديدة لديوان الرقابة المالية والادارية التى أعلن عنها فى إنجاز تقريره الجديد، ربما أراد النواب ذلك ليستخلصوا من هذه المنهجية ما يفيد.

من باب التنبيه والإحاطة، فإن ما نشرته الصحف المحلية هو ملخص مقدّم من ديوان الرقابة المالية والإدارية مكون من 13 صفحة فقط، التزمت او ألزمت الصحف بنشرها خلافاً لما كان يحدث طيلة السنوات السابقة حيث كانت الصحف تتسلم التقرير كاملاً بعدد صفحاته التى تتجاوز فى الغالب 400 صفحة، وكل صحيفة تختار ما تشاء لتسلط الضوء عليه، وبالتفصيلات التى تراها مناسبة، وبالعناوين اللافتة والمثيرة.

نحن هنا لسنا فى وارد استعراض ما جاء فى التقرير الأخير، ولا شئ منه، وهو فى معظمه، وكالعادة، يكشف بأن هناك من لم ينهضوا بمسؤولياتهم كما يجب، وأن هناك ما يستوجب استنفار أدوات المساءلة والمحاسبة، ولكن أردنا أن نتوقف أمام بعض ما يسترعى الانتباه، ومن يتمتعون بموهبة التقاط الاشارات فإن هناك الكثير مما قد يستوقفهم !

إضافة إلى ذلك، يسترعى الانتباه أن التقرير الجديد كما ذكرنا قوبل هذا العام بتعامل فاتر وغير مألوف، والتصريحات النارية لبعض النواب توقفت بالرغم من أن كلام بعضهم من واقع تجارب سنوات مضت محض ثرثرة فارغة لم تحقق نتيجة تذكر، وكأن الكل عاجز عن الفعل وعن استخدام أدواته الدستورية فى المساءلة والمحاسبة، رغم ان الثابت بان النواب هم ممن يفترض ان يبنوا مداميك هذه الأدوات، لا أن يراكموا الخيبات ويدورن ليعودوا الى بيت القصيد، وبيت القصيد هنا متوّج بعلامات الاستفهام والتعجب خاصة حيال بعضهم، أو كثير منهم ممن جعلوا قيم المساءلة والمحاسبة تدور فى ارجوحة الضياع، كما كان الحال سابقاً ولاحقاً وحالياً حتى الآن على الأقل، وكأن هناك من يصر ويتعمد على ان يجعل هذه الأدوات والقيم عاطلة او معطلة، او تعانى ما يشبه البطالة السافرة أو المقنعة، وهذا أمر مكلف للغاية و يبعث على الحزن والأسى.

اما المواطن فهو أمام "الغابة الخلاقة" من المخالفات والارتكابات والفساد والمساس بالمال العام من قبل دائمي الجشع للمكاسب والمصالح والمنافع الخاصة ويتربحون من وظائفهم بأبهى ما عندهم، هذا المواطن سيظل يحلم ولو بمحاسبة ومساءلة مسؤول واحد، لا إلى ما يعزز شعوره بأن من يرتكبون المخالفات محصنون من المساءلة والعقاب، وبالتالي لازال المواطن يحلم بالابتعاد عن الدوران فى المكان، والمراوحة فى العجز الذى يجعل كل تقرير الرقابة من تقارير الرقابة فى دائرة الإقامة الجبرية عند نقطة الصفر، فلا نعرف متى نغادر حالة تكرار المخالفات أو حتى الملاحظات التى يصر البعض على تسميتها كذلك من قبل العديد من الوزارات والهيئات والمؤسسات والشركات التابعة للدولة.

كما لا يعرف المواطن اي جواب على سؤال يفرض نفسه وهو: ما فائدة اي تقرير رقابي يصدر عن جهة موثوقة ورفيعة المستوى تتابع وترصد وتوثق بما تملكه من كوادر وأدوات وصلاحيات مظاهر خلل ومخالفات أوحتى ملاحظات وفى نفس الوقت تسمح لذات الجهات، وليس جهات رقابية اخرى محايدة، ان تفند، او تبرر، وإن اعترفت فى ردودها فعلى طريقة "سنتخذ اللازم"، ومادام هناك من بشرّنا بأن اللازم سيتخذ فكيف يمكن تفسير تكرار المخالفات، بل ويبقى من ارتكبوا ذات المآخذ والمخالفات فى مواقعهم، ثم أليس من حق المواطن معرفة طبيعة الإجراءات التى اتخذت فى سياق اتخاذ اللازم!

لا نظن، رغم أن بعض الظن إثم، أن طريقة التعامل مع التقرير الرقابي الأخير ستختلف عن التعاطى مع التقارير السابقة التى نكأت جروحاً وكشفت عن تقيحات لم تمتد اليها يد بالتطهير والعلاج، من هذا الباب والحيرة تملؤنا نقول: ليس مفاجئاً أبداً القول إن كل تقرير ينسينا ما جاء فى التقرير الذى سبقه، لقد تعودنا بعد كل تقرير أن يظهر من يؤكد لنا بما معناه بأن التحقيق قائم حيال بعض الوقائع ذات الشبهة بارتكاب الفساد، أو تلك التى تسببت فى أضرار ناشئة عن اهمال وهدر فى التعامل مع المال العام، والإنفاق فى غير الأوجه المحددة، ووُعدنا اثر كل تقرير باستظهار

الحقيقة، او على وجه الدقة، جملة الحقائق التى لازلنا بانتظارها، ولازلنا فى انتظار تسمية الأمور بإسمائها، منذ سنوات ولازلنا فى الانتظار، كما لازلنا فى انتظار اعلان محاسبة او اسقاط وزير او احالة مسؤول إلى النيابة العامة، أو القضاء.

ونحن نعلم جيداً أن شيئاً من هذا النوع الذى يزخر به أي تقرير من تقارير ديوان الرقابة لو حدث فى بلدان أخرى لكانت هناك أصداء نعرفها جميعا، أبرزها استقالة أو إقالة المعنيين، وإحالتهم للمحاكمة، هذا إن لم يؤدِ ذلك إلى استقالة الحكومة برمتها، من باب الشعور بالمسؤولية التضامنية الأدبية والسياسية، ولأن قيمة المسؤولية حاضرة على الدوام ولا تغيب عن الوعي العام، حيث لها أثر واعتبار ومكانة عالية فى القيم السائدة، وهذا أمر لا مساومة عليه فى تلك البلدان، ولا مجال للتفريط أو الاجتهاد فيه.

مؤسف أن ما يجرى يرسخ لثقافة التجاوزات وتكرار ذات المخالفات وأوجه الخلل فى أكثر من تقرير، وهو ما يشكل صدمة وخيبة فى آن واحد، صدمة من أن آليات المساءلة والمحاسبة لضبط الأداء المالى والادارى فى منظومة العمل الحكومى بالشكل اللازم لم تستيقظ بعد من رقدة العدم، والخيبة أولاً من ردود تكاد أن تكون معلومة مسبقاً، ولا تشفى الغليل ولا تضمن بأن عنصر الحساب والعقاب قد أخذ مساره الصحيح فى شأن هذا الملف او ذلك التجاوز، والخيبة ثانياً من تكرار المخالفات والتجاوزات، اضافة الى الجديد منها، والخيبة اخيراً من نواب كلما يوضعون أمام مسؤولياتهم بعد كل تقرير لا يخرجون عن دائرة الكلام المراوغ من نوع "لن نسمح بمرور التجاوزات مرور الكرام، وسنتخذ أدواتنا البرلمانية"، وقائمة المراوحة معروفة، كما هي معروفة قائمة المراوحين.

نصيحة للجميع: اكبحوا جماح تشاؤمنا، ولا تنسوا انكم أمام امتحان جديد فلا تمعنوا فى جعل العمل البرلماني محبطاً، باختصار لا تعملوا ضد أنفسكم!

المديونية وتقرير ديوان الرقابة المالية

كشف تقرير ديوان الرقابة المالية أن رصيد الدين العام للدولة قد بلغ كما في 31 ديسمبر 2019 حوالي 13.6 مليار دينار، فيما بقيت فوائد القروض المدفوعة على نفس المستوى مقارنة بعام 2018 إذ بلغ اجمالي فوائد القروض المدفوعة في عام 2019 حوالي 644 مليون دينار، وقد بلغت نسبة رصيد الدين العام من الناتج المحلي 101.2٪ لعام 2019، وبلغت نسبة فوائد القروض المدفوعة في عام 2019 من اجمالي إيرادات الدولة حوالي 22٪..

وكما هو معروف فإنه ومنذ عام 2014 عندما تدهورت أسعار النفط وانخفضت بشكل كبير من 130 دولار للبرميل الى ما دون 35 دولار، استمر الدّين العام لمملكة البحرين في الارتفاع، حيث تشير البيانات الرسمية إلى أن الرصيد في سنة 2012 بلغ 3.9 مليار دينار (33.6٪ من الناتج المحلي الإجمالي)، ثم قفز إلى 5.1 مليار دينار في عام 2013 (41.8٪ من إجمالي الناتج المحلي) وارتفع إلى 5.4 مليار دينار عام 2014 (42.9٪ من إجمالي الناتج المحلي) ووصل إلى 7.1 مليار في عام 2015

(60٪ من إجمالي الناتج المحلي) وارتفع ليصل إلى 8.9 مليار دينار في 2016 (74.2٪ من إجمالي الناتج المحلي)، ثم قفز إلى 12.4 مليار دولار عام 2018 (94٪ من إجمالي الناتج المحلي)، واستمر في الارتفاع إلى أن وصل إلى رقم قياسي تجاوز ال 13 مليار دينار حسب ما جاء في تقرير ديوان الرقابة المالية.

وبناء علىً هذا الارتفاع المخيف طلبت الدولة من السلطة التشريعية أكثر من مرة الموافقة على رفع سقف الدين العام إلى ان وصل الى 13 مليار دينار.

د. جعفر الصائغ

إن هذا الارتفاع الهائل في المديونية العامة ومقارنة إلى حجم الاقتصاد البحريني وموارده المحدودة وبالمقاييس الاقتصادية تعتبر مرتفعة للغاية، فالبحرين هي الأفقر في الموارد النفطية بين دول مجلس التعاون الخليجي، وتنتج نحو 200 ألف برميل من النفط الخام يومياً، ومواردها غير النفطية ضئيلة جداً لا تتجاوز 15٪ فقط من مجمل الإيرادات العامة.

إرتفاع المديونية بعد التحدي الأهم الذي يهدد الاستقرار الاقتصادي للمملكة، ولذلك اتخذت الدولة كافة الإجراءات لوقف نموه، ويأتي على رأس تلك الاجراءات سياسة مالية تقشفية صارمة انخفضت على أثرها المصروفات الحكومية وتوقف الدعم الحكومي على بعض السلع الاستراتيجية مثل البنزين.

وعلى الرغم من كل ذلك يفاجئنا تقرير ديوان الرقابة المالية لعام 2019 بوجود 1.54 مليار دينار ديوناً غير مدرجة في رصيد الدين العام، وذلك بعد قيام جهات حكومية بالاقتراض المباشر من الصناديق الخارجية، وهو ما يجعل مجموع الدين العام يصل إلى 14.54 مليار دينار، فيما تأكل فوائد القروض ما يقرب من 22٪ من الإيرادات الحكومية.

كما رصد تقرير ديوان الرقابة المالية أن وزارات وجهات حكومية تقوم بالاقتراض المباشر من المصارف المحلية بقيمة 1.8 مليار دينار دون إدراجها في رصيد الدين العام، تحت أي عنوان يدرج هذا الاقتراض؟ وكيف سمح لهذه الجهات بالإقتراض دون موافقة وزارة المالية والسلطة التشريعية؟

المؤكد أنه أكثر من تجاوزات. الاقتصاد الوطني لا يتحمل ما يسمى بالمخالفات أو التجاوزات غير المنهجة التي تقوم بها بعض الوزارات والجهات الرسمية كما بينها تقرير ديوان الرقابة المالية.

ويكشف التقرير أيضا أن المساعدات الاجتماعية لا تتوقف بموت الفرد حيث تم صرف مبالغ المساعدات لأفراد متوفين نظراً لعدم تحديث بيانات وفاتهم في نظام الهيئة، حيث بلغ عدد الحالات التي تم صرف المساعدات لهم بعد تاريخ الوفاة حوالي 639 حالة للدعم المالي و 113 حالة للضمان الاجتماعي و 613 حالة للتعويض عن اللحوم و 69 حالة لمخصص الإعاقة.

ويطالعنا التقرير بأن وزارة التربية والتعليم صرفت علاوة سكن لبعض المدرسات غير البحرينيات رغم توفير سكن لهم، كما قامت هذه الوزارة بصرف علاوة انتقال لبعض الموظفين على الرغم من قيامها بتوفير وسائل النقل لهم. كل هذه التجاوزات تعتبر اهدار للمال العام، وللمال حرمة.

تقارير ديوان الرقابة.. بين الحكومة والنوّاب

لا أستطيع أن أزعم أنني قرأت كافة التفاصيل الواردة في التقرير الأخير لديوان الرقابية المالية والإدارية (٢٠١٩–٢٠٢٠)، والذي يحوي بين دفتيه ما مجموعه ٣٢٢ صفحة، تُوّثق ما عوّدنا عليه الديوان منذ تقريره الأول وحتى الآن من حرفية ومهنية لا يرقى لهما الشك، ولو أن التقرير الآخير ربما يكون على جانب كبير من الوضوح والتسلسل في طرح جوهر الملاحظات بدلا من الاسترسال في التفاصيل التي ربما اضاعت الكثير من المضامين المهمة في التقارير السابقة، وذلك ما يحسب للتوجهات المعلنة كما جاء في مقدمة التقرير لمباشرة ومتابعة أعماله ضمن استرتيجية ومنهجية عمل جديدتين.

عبد النبي سلمان

ومن المهم هنا التأكيد على أن الديوان يسترشد، بحسب ما جاء في المقدمة، بالمفهوم العالمي للقيمة المضافة المتبع لدى مختلف الأجهزة العليا للرقابة والمحاسبة، وذلك بحسب معايير "الانتوساي" (إن القيمة المضافة والهدف الأسمى لمختلف اجهزة الرقابة والمحاسبة هو إحداث الفارق في حياة المواطنين، وذلك من خلال تحسين أداء الجهات الحكومية وتعزيز عوامل الثقة والشفافية)، وهذا بطبيعة الحال هو جلّ ما نطمح إليه كمواطنين وجهات أهلية في الحفاظ على موارد الدولة وماليتها وممتلكاتها.

لن أدخل في الكثير من تفاصيل التقرير الذي نحن بصدد مناقشة حيثياته، والأرقام والميزانيات، فهي كثيرة ومتكررة بكل أسف على مدى قرابة العقدين، لكنني سأكتفي بطرح السؤال الجوهري الذي يطرحه رجل الشارع العادي ويتم تداوله في المجالس والمنتديات كاستجابة تلقائية لما يحدثه الإصدار السنوي لتقارير الديوان وهو.. ماذا بعد؟! وما الذي سيفعله مجلس النواب باعتباره جهة رقابية وتشريعية تجاه ما يطرحه التقرير...؟!

تلك التساؤلات مشروعة تماماً، ومن المهم التركيز عليها وعدم تجاهلها سواء من السلطة التشريعية او من الحكومة ذاتها، باعتبار الأخيرة تحديداً مسؤولة مسؤولية مباشرة عن سرعة تصحيح جملة الأوضاع المعوجة والمخالفات والتجاوزات المالية والإدارية، التزاما منها على ما دأبت على طرحه باستمرار، من أن الحفاظ على المال العام وحماية ممتلكات الدولة والشفافية حيالها أولوية قصوى أمام السلطة التنفيذية!

نحن أمام تقرير جديد في سلسلة تقارير تعمدّ الدولة مباشرة بعد تقديم نسخ منه لجلالة الملك والسلطتين التنفيذية والتشريعية لتشكيل – لجنة – لتدارس ما جاء في تلك التقارير، ثم سرعان ما تنتهي تلك الإحتفالية دون أن نسمع جديداً عن الإجراءات المتخذة عملياً، لتصحيح الأوضاع، أو تقديم المتجاوزين والمتلاعبين مالياً وإداريا، ومهما كان موقعهم وحجمهم للمساءلة، فالدستور الذي نحترمه ونقسم على احترامه يؤكد أن للأموال العام حرمة يجب الحفاظ عليها (..).

في التقرير الأخير هناك وجوه متكررة من التلاعب والتسيّب مالياً وإداريا، ما يكفي لتغييرات جذرية وجوهرية في هياكل وزارات وجهات حكومية عديدة، على الرغم من أن التقرير الأخير يقول في مقدمته إن نسبة ما تمّ انجازه من تنفيذ لتوصيات التقرير السابق قد بلغت 80٪ ، وهي نسبة جيدة جدا بطبيعة الحال، لكننا حتماً لا نفهم إصرار وزارات وجهات عديدة، عاماً بعد آخر، على تكرار ذات التجاوزات والمخالفات للوائح المالية والإداريــة دون أن يرفّ للمسؤولين فيها جفن، ودون وجود اجراءات إدارية رادعة.

هناك مخالفات في تحصيل عشرات الملايين من أموال الدولة، وهناك توظيف خارج القانون، وعلى حساب الكفاءة والكم لأجانب على الرغم من توجهات الدولة المعلنة بإحلال البحرينيين، وهناك تجاوز مستمر لقانون المناقصات، وتحايل والتفاف لعدد كبير من الجهات على لوائح إرساء العقود والمناقصات، وهناك تجديد لعقود خارجية وداخلية لموردين دون الرجوع لمجلس المناقصات (وهذا احتيال واضح ومتكرر ويحدث عن عمد وتقصّد لوزارات يتزايد عددها عاما بعد آخر)، وهناك تجاوزات متكررة للمادة (32) من قانون الميزانية والتي لا تسمح لأية وزارة أو جهة حكومية ب زيادة مصروفاتها المعتمدة إلا بقانون!

وهناك تجاوز متعمد لضوابط عمل الساعات الإضافية في جهات حكومية عديدة، وهذا يفهم منه التنفيع على حساب حرمة المال العام، وهناك وزارات تدفع نقداً ايجارات السكن لموظفيها الأجانب في وقت توفر لهم سكن خاص في مبان تؤجر بالملايين... الخ

وأمام هذا المشهد تبقى اسئلتنا تبحث عن اجابات عاجلة، ونحن نجهد من أجل تحقيق التوازن المالي المطلوب، ولكي نكون أكثر إقناعاً أمام المواطن البسيط، الذي بات يلهث لضمان مكتسباته المهددة فعلياً، في وقت يطالب مشروع الميزانية المعروض للمناقشة على السلطة التشريعية بزيادة "الإيرادات غير النفطية"، أي الضرائب تحديداً، وأي ضرائب؟!

أليس مطلوباً أن تقوم السلطة التشريعية بدور أكبر خلال الفترة القادمة لتحقيق المساءلة عن تلك التجاوزات والتعدي على المال العام توفيراً لمئات الملايين المضيعة التي نحن في أمس الحاجة اليها؟! أليس مطلوباً أن ترينا الحكومة بقيادتها الجديدة الشابة خطوات أكثر حسماً، لحماية المال العام وممتلكات الدولة، والتفكير بأساليب مبتكرة لضبط موارد الدولة ومحاسبة المتجاوزين علنا وبما يسمح به القانون، حتى نحقق الغاية من وجود تقارير سنوية للرقابة وسلطة تشريعية ورقابية ينتظر منا الكثير في زمن صعب وظروف قاسية كالتي نعيش؟!

قراءة أولية في تقرير ٢٠١٩/٢٠٢٠

شكل التقرير الجديد يحدّ من الرقابة البرلمانية

تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية ٢٠١٩/٢٠٢٠ هو رقم ١٨ في سلسلة تقارير الديوان، لكنه يأتي في ظلّ إدارة جديدة للديوان، لذلك يوجد في صيغته أوجه مغايرة عن التقارير السابقة. من ناحية الشكل، يلاحظ أن التقرير الجديد قلص في حجمه، إذ إنه يبلغ ٣٢٢ صفحة، بينما التقرير السابق ٢٠١٨/٢٠١٩ يقع في ٨٨١ صفحة. وقد لا يعود الفرق في الحجم فقط إلى تغيّر الإدارة فحسب، إذ يمكن إيعازه إلى جائحة الكورونا ومستجداتها التي شملت فترةً من الحيز الزمني للتقرير.

مَنْ يقارن أساليب العرض بين التقرير الجديد ونظرائه السابقين، يجد أن التقرير الجديد يكثر من استخدام وسائل العرض عن طريق الإفنجرافيك، وهي بالمناسبة وسائل عرض باتت تنتشر في التقارير والبيانات الرسمية سواء المخصصة للإعلام أو المعتمدة للعرض العام وفق قواعد الشفافية. هذه الطريقة مع بساطتها وتسهيلها المعلومة للمتلقي، إلا أنها لا تصلح لأن تُعتمد في البيانات الرسمية التي يحتاج المراقب فيها إلى تفصيل يسمح له بالتدقيق والمقارنة مع ما يصل إليه من معلومات وبيانات عبر وسائله الخاصة، خصوصاً إن كان هذا المراقب نائباً لديه صلاحيات رقابية يحركها نحو أداء الجهات التنفيذية، إذ أنه في هذه التفاصيل تكمن "شياطين" الفساد، وبدونها يعدم أو يتقهقر الدور الرقابي المؤمل.

في إطار المقارنة أيضاً بين الجديد والقديم يتضح أمر غاية في الأهمية، كانت التقارير السابقة تحوي ردود الجهات الحكومية على ملاحظات ديوان الرقابة وتعقيب هذا الأخير عليها إن لزم الأمر. هذا الإجراء غائب عن التقرير الجديد، إذ يكتفي بعرض المخالفة والتوصية.

إغفال رد الجهات الحكومية على المخالفات وتعقيب الديوان على الرد، يضعف الدور الرقابي لمجلس النواب الذي يضطر حينها إلى الاستفسار عن سبب المخالفات الواضحة في التقرير، مع العلم أن التقارير السابقة عندما تورد ردود الجهات وتعقيب الديوان عليها تعطي سنداً سياسياً في الرقابة البرلمانية على جدّية الإصلاح من عدمه عند الجهات محل الرصد والرقابة، وذلك عند تحريك الأدوات الرقابية المتاحة وخصوصاً السؤال البرلماني، ففي الغالب عندما يأتي رد الجهة على السؤال البرلماني قريباً أو مطابقاً مع ردها على الديوان الذي جزماً يعقب عليه، فإن النائب مقدّم السؤال يستشعر التهاون في الإصلاح وتلافي الخلل، على رغم أسبقية ملاحظة وتوصية وتعقيب الديوان. كل هذا يغيب في الشكل الجديد لتقرير الرقابة.

الملاحظات الآنف ذكرها، تدلل على أن التقارير السابقة أفضل في التفصيل من التقرير الجديد الذي يصاغ في ضوء الإدارة الجديدة للديوان، لذلك فإن أول ما يمكن البوح به هنا هو ضرورة إرجاع آلية العرض السابقة في التقارير الحاوية على التفصيل من رد وتعقيب، مع إبقاء الإنفجرافيك كعامل مساعد لاختصار التفصيل لمن أراد التلخيص، لا حذف

يوسف زينل

الإطناب بداعي وجود القشور!

من ناحية الموضوع، فإن التقرير تناول في شقّ الرقابة المالية المشتملة على الحساب الختامي للسنة المالية المنتهية في 31 ديسمبر 2019، كل من الجهات التالية: وزارة الأشغال وشؤون البلديات والتخطيط العمراني، أمانة العاصمة، بلدية المنطقة الشمالية، بلدية المحرق، وزارة التربية والتعليم، وزارة الصحة، المجلس الأعلى للبيئة، وزارة الخارجية، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف (شؤون العدل)، هيئة جودة التعليم والتدريب، وزارة الإسكان، هيئة المعلومات والحكومة الإلكترونية، هيئة الكهرباء والماء.

وعن رقابة أعمال الالتزام، فإن التقرير شمل الجهات التالية: هيئة الكهرباء والماء، إدارة الأوقاف الجعفرية، إدارة الأوقاف السنية، بنك اللحرين للتنمية، هيئة تنظيم سوق العمل، شركة طيران الخليج، وزارة العمل والتنمية الاجتماعية، وزارة الصحة، وزارة الأشغال وشؤون البلديات والتخطيط العمراني، المجلس الأعلى للبيئة، هيئة جودة التعليم والتدريب.

وجاء فصل مستقل للرقابة على الجمعيات السياسية والملاحظات عليها.

مع كثرة الملاحظات التفصيلية التي يمكن الخوض فيها، إلا أنه اختصاراً لهذه العجالة يمكن إلقاء الضوء على موضوع يعتبر من مواضيع الساعة، وهو "نظام تصريح العمل المرن". يجب القول بدايةً إن الخطة الوطنية لسوق العمل تعود إلى أكثر من 7 سنوات، أي أن آخر خطة وضعتها هيئة تنظيم سوق العمل كإستراتيجية وسياسة عامة بشأن تشغيل العمالة الوطنية والأجنبية تعود إلى يونيو 2012 وهذا مخالف لنص قانون سوق العمل ذاته وبالتحديد البند (أ) من المادة الرابعة الذي ينص على ضرورة وضع الخطة كل سنتين.

هنا يمكن القول إن نظام تصريح العمل المرن المطبق ابتداءً من 23 يوليو 2017 لم يأت على سند خطة واضحة تواكب مستجدات سوق العمل. بالإضافة إلى ذلك فإن هيئة تنظيم سوق العمل أطلقت هذا النظام دون "أن تعقد مشاورات مع الجمهور والجهات المعنية"، وهذا مخالف لنص البند (ب) من المادة الخامسة في القانون، كما أن الهيئة حين أطلقت هذا البرنامج لم تحدد الفئات المستهدفة منه بشكل دقيق مما ساهم في تغير هذه الفئات، والنتيجة أن نسبة 58٪ من العمالة المستفيدة من هذا النظام لم تكن عمالة غير نظامية على عكس الهدف الذي أطلق البرنامج من أجله، وهو احتواء العمالة غير النظامية.

ويمكن هنا الإشارة إلى قرار الرئيس التنفيذي للهيئة رقم 17 لسنة 2017 الذي لم يحدد المهن غير التخصصية التي يمكن للعامل الأجنبي أن يزاولها، وهذا بلا شك يعطي العامل مساحة واسعة للتجاوز دون أن يكون هناك سند قانوني واضح لصد هذا التجاوز. الطامة الكبرى أن 96٪ من تصاريح العمل المرن أعطيت لمهن تزاولها العمالة الوطنية التي تبلغ فيها نحو 59 ألف عامل بحريني من المؤمن عليهم في القطاع الخاص لدى الهيئة العامة للتأمين الاجتماعي. الطامة الأكبر أن الهيئة منحت التصريح المرن لعمالة أجنبية تعمل في مهن تخصصية كالطب والصيدلة والتمريض والهندسة ونظم المعلومات، وكذلك منحت التصريح لعمالة أجنبية لديها سجلات تجارية. وهذا كله مخالف لهدف البرنامج واشتراطاته.

ويجب الإشارة إلى أن الهيئة لم تضع آلية واضحة لمتابعة تصاريح العمل المرن، كما أنها لم تحدد فترة سماح واضحة لتأخير سداد الرسوم الشهرية ولا مدة واضحة لإلغاء التصريح عند تخلف السداد. وهو ما ساهم في تدمير السوق البحريني على عكس المؤمل منه.

تقرير ديوان الرقابة.. منهجية ناقصة

تشير ديباجة تقرير ديوان الرقابة المالية والإدارية للسنة المهنية ٢٠١٩–٢٠٢٠ إلى أنه اتبع منهجية جديدة في صياغة التقرير، إذ تمّ الاكتفاء بإيراد الملاحظات الرقابية والتوصيات المقررة بشأنها من دون الاسترسال بعرض ردود الجهات على الملاحظات وما يلحقها من تعقيب للديوان على تلك الردود، غير أن هذا التقرير يعدّ أضعف التقارير بالمقارنة مع تلك التقارير التي صدرت في الأعوام الماضية، فجاءت هذه المنهجية قاصرة ناقصة في الرقابة المالية على أموال الدولة وأموال الجهات التابعة لها والمنصوص عليها في قانون الديوان رقم (١٦) لسنة ٢٠٠٢، ويتمثل أبرز الأمثلة على هذا القصور في الآتي:

أولاً: أموال وإدارة التأمين الاجتماعي:

على الرغم من الأهمية الكبيرة التي يوليها المواطنون خصوصا الغالبية العظمي من المتقاعدين لأموال التأمين الاجتماعي، فإن تقرير ديوان الرقابة فيما وضعه من منهجية جديدة يتجاهل الرقابة الإدارية والمالية على أوضاع صناديق التأمين الاجتماعي للسنة المهنية 2019–2020.

إذ كان على هذا التقرير، خاصة في ظل التعديلات القانونية الجديدة التي نصت عليها أن يشتمل، كما هو الحال في تقارير الديوان السابقة، على بيان للعجز الالكتواري لصناديق التقاعد وأسباب هذا العجز، وما كان يشوب الإدارة من سوء وفساد خاصة في كيفية استثمار أموال المتقاعدين كسبب رئيس للعجز.

وكان عليه على سبيل المثال أن يحدد الأسباب التي أدت إلى تصفية أملاك الذراع العقاري للتأمين الاجتماعي وتحويل اختصاصاتها إلى أصول، ونتائج هذه التصفية، حتي يعرف المتقاعدون كيف استثمرت أموالهم، وما هي الحلول التي وضعت ونفذت للتجاوزات التي أشارت إليها التقارير السابقة بشان التأمين الاجتماعي، أبرزها على سبيل المثال لا الحصر تقرير (2016–2017) الذي أكدّ على وجود (تدن في نسبة العوائد المالية للعقارات المملوكة للهيئة العامة للتأمين الاجتماعي الذي يعود الى عدم قيام شركة أملاك – وهي الجهة المكلفة بإدارة عقارات هيئة التأمينات – باستغلال 19 أرضا تبلغ قيمتها السوقية 289 مليون دينار على الرغم من مضي 3 سنوات على بدء نشاط الشركة مع الهيئة).

ثانياً: المال العام للأراضي المغمورة في البحر:

على الرغم أن الأراضي المغمورة في البحر هي من الثروات الطبيعية وتعدّ من الأموال العامة ملك الدولة، وأن الدستور ينص على أن للأموال العامة حرمة، وحمايتها واجب على كل مواطن، وعلى الرغم من صدور المخطط الهيكلي الاستراتيجي بموجب المرسوم رقم (36) لسنة 2016 الذي يتعلق بالتخطيط في زيادة مساحة مملكة البحرين إنشاء مجموعة من الجزر الاصطناعية الجديدة بدفان الأراضي المغمورة في البحر، أضحت في معظمها ملكية خاصة للاستثمار تتعلق بمال عام ملك الدولة، يتعين الرقابة عليه، إلا إن تقرير ديوان الرقابة لا يشير في رقابته على هذه الأموال، لا من بعيد أو قريب، وكان عليه أن يتناول في تقريره قيمة هذه الأراضي المغمورة قبل دفنها وبعده عند استثمارها، وأن يجيب على سؤال هام هو: لماذا لم يكن للميزانيات العامة للدولة المتعاقبة نصيب من قيمة هذه الاراضي، أومن قيمة استثماراتها ؟

المحامي حسن إسماعيل

ثالثاً: الرقابة على الدين العام:

جاء في تقرير الرقابة في الملاحظات المتعلقة بالرقابة المالية بالدين العام قيام بعض الوزارات والجهات الحكومية بالاقتراض المباشر من المصارف المحلية والصناديق الخارجية من دون أن يتم إدراج ديونها ضمن رصيد الدين العام. وقد بلغت القروض المستحقة على تلك الجهات والتي لم تدرج ضمن رصيد الدين العام لعام 2019 حوالي 1.8 مليار دينار، وقد تكرر هذا في تقريره السابق لعام (2018 ، 2019) دون يتأخذ ديوان الرقابة أي خطوات عملية لوقف هذا التصرف ومحاسبة الجهات الحكومية التي تقوم بهذا الاقتراض، ولا ينال من ضرورة هذه المحاسبة رد وزارة المالية والاقتصاد الوطني بهذا الشأن بأن تلك القروض هي (خاصة بالجهات الحكومية ذات الميزانية المستقلة والتي تقوم بالاقتراض استنادًا إلى حكم الفقرة (ب) من المادة (108) من دستور المملكة والتي تنص على أنه "يجوز للهيئات المحلية من بلديات أو مؤسسات عامة أن تقرض أو تقترض أو تكفل قرضاً وفقاً للقوانين الخاصة بها". وأنه لا يتم سداد هذه الديون من الميزانية العامة للدولة، ولا تكفل أو تضمن حكومة مملكة البحرين هذه القروض، فمن ثم لا تدرج تلك القروض من الناحيتين ضمن رصيد الدين العام لحكومة المملكة).

ذلك أن حكم الفقرة (ب) من المادة الدستورية المشار إليها في ردّ وزارة المالية لا تحول ولا تمنع على الإطلاق من رقابة ديوان الرقابة على ما تقوم تلك الجهات الحكومية ذات الميزانية المستقلة من اقتراض وفقاً للقوانين الخاصة بها من حيث مدى جدوى وضرورة هذا الاقتراض، ولا يمنع أيضاً من الرقابة على ميزانيتها المستقلة، ولا يحول النص الدستوري المذكور من إدراج هذه القروض ضمن رصيد الدين العام في الميزانية العامة للدولة بل هناك في الدستور من الاحكام التي تعزز وتؤكد صحة ما ذهبنا إليه نحددها فيما يلي:

إن الجهات الحكومية ذات الميزانية المستقلة، وإن كانت مستقلة في ميزانيتها، فهذا الاستقلال يتعين أن يكون في ظل توجيه الدولة ورقابتها، وإن على الدولة أن توجه هذه الجهات بما يتفق والسياسة العامة للدولة ومصلحة المواطنين .وذلك عملاً بنص المادة (50) من الدستور التي نصت على أنه (أ– ينظم القانون المؤسسات العامة وهيئات الإدارة البلدية بما يكفل لها الاستقلال في ظل توجيه الدولة ورقابتها، وبما يكفل لهيئات الإدارة البلدية إدارة المرافق ذات الطابع المحلي التي تدخل في نطاقها والرقابة عليها . ب– توجه الدولة المؤسسات ذات النفع العام بما يتفق والسياسة العامة للدولة ومصلحة المواطنين).

إن الميزانيات العامة المستقلة والملحقة وبحساباتها الختامية، تسري في شأنها الأحكام الخاصة بميزانية الدولة وحسابها الختامي، طبقا لنص المادة (114) من الدستور التي نصت على أنه (يضع القانون الأحكام الخاصة بالميزانيات العامة المستقلة والملحقة وبحساباتها الختامية، وتسري في شأنها الأحكام الخاصة بميزانية الدولة وحسابها الختامي. كما يضع أحكام الميزانيات والحسابات الختامية الخاصة بالبلديات وبالمؤسسات العامة المحلية) .

خامساً: قصور في تطبيق القانون:

إن سكوت التقرير الجديد عن الرقابة المالية والإدارية عن ما أشرنا إليه وغيره من حالات أخرى تتعلق بالمال العام للدولة وغيرها من الجهات التابعة لها، يتعارض مع الاختصاصات التي نصّ عليها قانون ديوان الرقابة رقم (16) لسنة 2002 على أن مهمته هي الرقابة المالية على أموال الدولة وأموال الجهات المنصوص عليها في المادة (4) من هذا القانون، ويتحقق بوجه خاص من سلامة ومشروعية استخدام هذه الأموال وحسن إدارتها، وذلك على الوجه المنصوص عليه فيه.

ولا يكفى أن يكشف الديوان في تقريره عن بعض التجاوزات المالية والإدارية للجهات التي تقع تحت رقابته، بل لابد أن يبين في تقريره أوجه الفساد في هذه التجاوزات لكل الجهات التي تقع تحت رقابته، وأن يحدد بوضوح وشفافية في تقريره فيما إذا كانت هناك أدلة جدية على وجود جريمة جنائية من عدمه في المخالفات التي وردت في التقرير حسب نص المادة (11) من قانون الديوان، بتحريك الدعوى الجنائية وتحديد المسؤول عنها جنائيا بإحالته إلى الجهة المختصة إذا ما توافرت لديه أدلة جدية على ذلك.

توضيح الواضحات

تقرير الرقابة ومأزق نظام «التصريح المرن»

ما جاء في تقرير ديوان الرقابة المالية الأخير ٢٠١٩/٢٠٢٠ بخصوص تصريح العمل المرن وسياسات هيئة تنظيم سوق العمل يتوافق مع ما سبق وتوصلت إليه لجنة التحقيق البرلمانية في تقريرها المقر من مجلس النواب في جلسته السابعة عشر من الدور الثاني بتاريخ ٤ فبراير ٢٠٢٠ خاصة في ما خلص إليه تقرير اللجنة النيابية في:

فلاح هاشم

– مخالفة الهيئة للقانون الناظم لعملها في الفقرة (أ) من المادة (4) والتي تنص على وضع وتنفيذ خطة وطنية بشأن سوق العمل تحدد التوجهات الاستراتيجية والسياسات العامة لتشغيل العمالة الوطنية والاجنبية كل سنتين والتي تم تجاهل تنفيذها منذ يونيو 2012.

– مخالفة الهيئة للقانون بعدم تفعيل آلية الحوار الاجتماعي، والذي ينصّ عليه القانون في الفقرة (ب) من المادة الخامسة، التي تنص على أنه (في حالة عزم الهيئة إصدار أية أنظمة أو لوائح أو قرارات أو اتخاذ أية تدابير ذات تأثير ملموس على سوق العمل، فإنه يجب عليها أن تعقد مشاورات مع الجمهور والجهات المعنية لاستطلاع آرائهم قبل إصدار أي من تلك الأنظمة أو اللوائح أو القرارات أو اتخاذ تلك التدابير).

هذا بالاضافة الى ما اشار اليه التقرير الى العديد من المخالفات الاخرى منها: غياب الدراسات والمسوحات عن العمالة التي يحتاجها سوق العمل ولا تتعارض مع المهن المستهدفة، وعدم تقيد الهيئة بهذه الفئات، وما بيّنه التقرير من عدم تطابق الاشتراطات على حوالي 22 ألف تصريح عمل مرن حتى نهاية أغسطس 2019، ومخالفة صريحة للاشتراطات المنصوص عليها، تم منح تصاريح عمل مرن لأفراد أسر مقيمين في المملكة دون إقامة سارية، هذا عدا عن عدم متابعة إجراءات تجديد التصاريح وتحصيل مستحقات الهيئة من الرسوم التي تصل إلى حوالي 1.2 مليون دينار.

مما سبق يتضح جلياً المأزق الذي مرّ به نظام التصريح المرن الذي لا يقتصر على المخالفات التي سبقت إصداره أو ترافقت مع تنفيذه، وإنما هي، في رأينا، نتيجة لنهج السياسات التشغيلية وما نتج عنها من اختلالات جوهرية منذ عقود، خاصة في ما يعنى بالعمالة الوافدة وبالذات الرخيصة وبظروف عملها التي تنعدم فيها إمكانية حصولها على أرض الواقع على العديد من الحقوق بما تشمل الحد الادنى للأجور والذي يعتبر حجر الزاوية في تنظيم علاقات عمل لائقة وما يتبعها من الحق في التنظيم النقابي والمفاوضة الجماعية والحماية الاجتماعية، وما أنتجته هذه السياسات من تحدّيات وتبعات على العديد من الصعد، بدءاً من انعكاساتها على فرص العمل للعمالة الوطنية وتأثيرها على مستوى الأجور، وكذلك المستوى المعيشي للعمالة الوطنية والوافدة بصورة عامة وتبعاتها المجتمعية والتركيبة الديمغرافية للبلد.

لقد أدت هذه السياسات في التشغيل وإغراق البلد بالأيدي العاملة الوافدة الرخيصة لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال والمستثمرين بدون أية ضوابط وما رافقها من الكثير من الممارسات، وعدا عن أنها غير قانونية فإنها تتعارض مع العديد من الأخلاقيات والمبادئ الانسانية بحيث أصبحت المتاجرة برخص العمل، والتي تعتبر إحدى اوجه المتاجرة بالبشر، مصدر إثراء للعديد ممن امتهنها لعقود طويلة أمام مرأى ومسمع الجهات المعنية، مما يتطلب معالجة هذه الاختلالات بدراسة مسبباتها والظروف التي أدت الى نموها بحيث أصبحت تشكل مخاطر على المجتمع هذا بالاضافة لما له من تبعات تحتمها التزامات المملكة بحكم انضمامها إلى مؤسسات ذات شأن حقوقي وعمالي على المستوى الدولي.

لقد تمّ تشريع نظام التصريح المرن لمعالجة تبعات ونتائج هذه السياسات، من دون أن يعالج الأسباب الحقيقية لها، ولذلك لم يجن منه إلا الخيبات والفشل والذي تجلى في موقف جميع الشرائح المجتمعية الرافضة له، رغم كل الحملات الترويجية التي بذلت فيها الميزانيات الكبيرة. وفشل الهيئة في تحقيق ما أعلنت عنه عند بداية تطبيق هذا النظام، والذي حددته بـــتخفيض أعداد العمالة غير النظامية بـ 48 ألف عامل غير نظامي خلال عامين، حيث أكدّ التقرير أنها انخفضت بمقدار 18 ألف فقط خلال سنتين من تطبيق النظام، أي بمعدل أقل من 46٪ من العدد المنشود. بل أدى إلى تفاقم مشكلة العمالة غير النظامية بتحوّل أعداد كبيرة من منها إلى عمالة غير نظامية بدلاً من الحد منها.

آن الأوان لمغادرة هذه السياسات المدمّرة عبر حوار جاد مع جميع القوى المجتمعية المعنية بموضوع العمالة لوضع رؤية شاملة تأخذ في الحسبان مصالح البلد العليا وكافة شرائحه الاجتماعية وبالأخص قواه العاملة.

حول الجذور الاقتصادية الاجتماعية للحالة الانتخابية في أميركا

على كثرة وتنوع المعلومات التي تُحشر في أدمغتنا تباعاً حول الانتخابات الأمريكية يبقى مصدرها ماكنة الإعلام الأميركية. وهي ليست خاضعة للمال السياسي، كما في كثير من البلدان. أصحابها هم رأس المال الكبير، الطرف المباشر في الصراع الانتخابي. كما أن النظام الانتخابي يرفض التمثيل النسبي ليسمح فقط بتنافس الحزبين الرئيسيين ويستثني بقية القوى السياسية، فلا ينتشر خطابها، وإذا ما أردنا فهم حقيقة ما يجري فمن الضروري أن نستخدم مصادر أكثر صدقية.

عبد الجليل النعيمي

غالبا يصوَّر لنا أن شخصية وتصرفات ترمب هي التي أسقطته. دعونا نحكم من خلال التجربة الذهنية التالية: مَنْ مِنْ رؤساء أميركا كان جمهوريا فظاً، جعل من التمثيل والإعلام سلم شهرته منذ شبابه، نُصِّبَ كهلا، وقف ضد المهاجرين والإجهاض والمعونات والرعاية الصحية الشاملة، ولصالح خفض الضرائب على الشركات والأثرياء، دخل في نزاعات مع ثاني أكبر اقتصاد عالمي، سحب جنده من الشرق الأوسط، نابي الألفاظ وداعٍ لقمع المحتجين بقسوة، استثار كراهية قسم من الشعب وسَّماه سياسيون أجانب «صنيعة القوى الرجعية» ؟

دونالد ترمب؟ صح. لكن مهلا، ألا ينطبق ذلك بالضبط على الرئيس الأربعين رونالد ريغان. دونالد ورونالد شبيهان كالتوأم بصفاتهما السياسية والسلوكية. لكن ريغان فاز في الفترة الثانية بأغلبية لم يسجلها أحد حتى الآن 525 صوتا، أي 97.6٪ من أصوات المجمع الانتخابي. أما ترمب فخسر، إذ حصل على 232 صوتا (43.1٪). إذن، يمكن أن نتفق أن المواصفات الشخصية والسياسية ليست حاسمة، رغم أثرها بالطبع. بين الرئيسين الجمهوريين فرق جوهري. ريغان جاء ليبني إدارة حكم الرأسمالية المالية التي تمكنت وآن لها أن تحكم، فدعمته بلا حدود، حاشدة غالبية «الطبقة الوسطى» الصاعدة. أما ترمب فجاء ليقوض أركان تلك الإدارة. ولكي نفهم قصته نحتاج الغوص بحثاً في الجذور الاقتصادية الاجتماعية التي هيأت لمجيئه. فهيا بنا.

أشار ك. ماركس إلى ظاهرة نقل صناعات كبرى إلى البلدان الأقل تطورا، حيث رُخص الطاقة والأرض والأجور والموقع الحيوي، رغم أنها ستستورد خامات الإنتاج من أقاصٍ في المعمورة، ثم تصدر منتجاتها إلى أقاصٍ أخرى (وكأن «ألمنيوم البحرين» بباله؟). هذا ميل طبيعي في تطوّر الرأسمالية. لكن هناك أسباب أيديولوجية فاقمت من هذه الظاهرة: بنتيجة الحرب العالمية الثانية تزايد تأثير الاتحاد السوفييتي وأفكار الاشتراكية عالمياً، ورأى أيديولوجيو الرأسمالية في تنامي عدد وتنظيم الطبقة العاملة في المؤسسات الإنتاجية الكبيرة خطراً يهدد مستقبل الرأسمالية، باعتبارها حاملة للأيديولوجية الماركسية – اللينينية وقاعدة اجتماعية للثورات الاشتراكية، وتجعل من «الشبح الذي يجول أوروبا» أكثر مرعبا. وَرَدَ في أذهانهم تفتيت الصناعات الكبرى إلى أصغر، ومعها تفتيت القوى العاملة. لكنهم اصطدموا باستحالة ذلك نظرا للخصائص التكنولوجية للصناعات العملاقة، فتم تحويلها إلى جنوب شرقي آسيا أساسا. المؤسسات الإنتاجية الأخرى جُزئت إلى «إنتاجيات» أصغر، «أضيق تخصصا».

أضعف هذا التوجه قدرات الدولة الأميركية، وفرَّغ الكثيرين للتشغيل في مجال المال، وآخرين في مجال الخدمات الأخرى. أي، بدأ تراجع الاقتصاد الحقيقي مقابل تعاظم قطاع المال. وبدا المجتمع سريع التأقلم مع الواقع الجديد. أصبح الكسب في قطاعي المال والمضاربات العقارية وفي قطاعات التجارة والخدمات أقل عناء من الكدح في الإنتاج، وغدا الاستيراد مفتوحاً والقروض الاستهلاكية متيسرة و"الطبقة الوسطى" تتنامى. "احتل" المال الدولة بعد أن خرج من عباءتها و"امتلك" المجتمعَ بالقروض والأموال "السهلة". وقد استشرت هذه الظاهرة في بلدان المليار الذهبي ثم في أطراف العالم الرأسمالي، التي هيمن فيها ما يسمى "حكم المصرف"... ظهرت العولمة الرأسمالية بأيديولوجيتها الليبرالية الجديدة.

تعايشت أمريكا مع ذلك من الثمانينات وحتى بداية الألفية وفق معادلة (إصدار دولارات – استيراد استهلاكي – زيادة الدين العام)، لكن مع حلول عام 2008 اتضح أن الاقتصاد يتأزم، ولم تعد البلاد تملك إلا سلاحين: طبع المزيد من الدولارات لمعالجة الأزمات المتصاعدة، والقوة العسكرية لفرض "هيبة" الدولار كوحدة أساس في الحسابات العالمية ولتغطية الدين العام والإبقاء على العولمة الأميركية كنظام لإدارة العالم.

بذلك ظهر تهديد حقيقي يحتقر قيمة العمل المنتج وكل منظومة العلاقات الاجتماعية والقيم والسلوك والوظائف الاجتماعية للعمل ورأس المال والبنى الفوقية من تشريعات وثقافة، وكنتيجة حتمية انهار ذلك العالم ليظهر على إثره "مجتمع المستقبل" الذي توجهه نخب تتخذ القرارات مختفية وراء كواليس العروض السياسية، ولا تتحمل أية مسؤوليات عما تمارسه من أعمال.

وفي الوقت الذي أصبح الاقتصاد الأميركي يَهِنُ أمام تقدم العملاق الاقتصادي الاشتراكي في جمهورية الصين الشعبية، جاء ترمب "حاملا السلم بالعرض" ضد المؤسسة الأميركية، بجمهورييها وديمقراطييها، ببرنامج اقتصادي يحمل نهجاً مغايراً للرأسمالية المالية، وليسحب نظام الإدارة من بين أيديها لصالح الرأسمالية الإنتاجية – التكنولوجية الأميركية، التائهة في المنافي والمنهَكة في الداخل. والحقيقة، هذا يخدم حاجات التطور الاقتصادي الأميركي.

المفارقة الخطيرة أن هذا التوجه الصائب يقوده ترامب بأيديولوجيته القومية الشوفينية المتمحورة حول «أمريكا أولاً»، المعادية للملوَّنين والأجانب وللضمان الاجتماعي، والمنحازة كلياً لمصالح كبريات الشركات، تناهضه عولمة رأسمالية (تسمى مجازا الأممية المالية «fintern") بكل ما تدعو إليه من "ديمقراطيات على شاكلتها" بإطلاق "الاستعباد المالي" والتحرر من كل شيئ، بما في ذلك منظومات القيم وقواعد الأخلاق والسلوك الإنساني السليم. وهكذا فنحن أمام أيديولوجيتين متصارعتين، لكنهما تعكسان وجهي الأزمة العامة للرأسمالية التي تستنفذ بتسارع إمكانات تطورها.

التناقض الخطير الآخر هو أن ترمب، داعية الاقتصاد المنتج والذي يعتبر، أيديولوجيا، حامي القيم والتقاليد الدينية المسيحية والتماسك الأسري قد صنع ثرواته من أنشطة غير منتجة كالمضاربات العقارية، وأخرى معابة في

المجتمع المحافظ (حفلات المجون والترفيه وصالات القمار). هذه التركيبة المعقدة توضحها تركيبة القاعدة الانتخابية لترمب: أولا، ذوو الدخل الذي يفوق 100 ألف دولار في السنة (المتضررون من ضرائب الديمقراطيين)، ثانيا، الأسر المحافظة، ثالثا، البيض، الذين رجحوا ترمب على بايدن بتناسب 57 مقابلَ 43٪، بينما خسر بين الملونين بشكل كارثي 12 مقابل 87٪.

العامل الاقتصادي هو الحاسم عادة في الانتخابات الرئاسية الأميركية: «It is the economy، stupid!» شعار حملة بيل كلنتون الانتخابية. فاز أوباما في الجولة الثانية 2012 لأنه «نجح» في فترته الأولى في إضعاف لهيب أزمة 2008 عن طريق رشّات ناعمة متتالية من الإصدار النقدي. لكن فترته الثانية أظهرت الفاعلية المؤقتة فحسب لتلك السياسة التي، وإن نفعت النخب المالية، إلا أنها لم تنفع حتى ممثلي «الطبقة الوسطى» التي أخذت في التآكل سريعا، ناهيك عن الطبقات الدنيا، بسبب تراكم الديون وفقدان فرص العمل. لذا فاز ترمب بوعوده الاقتصادية الانتخابية رغم قساوة ولا أخلاقية معارك انتخابات 2016 من الجانبين.

وقد «تعاهدت» النخب المالية أن تَحُول دون حكمه، وفي أضعف الأحوال، تجعل الأرض تميد تحته طوال رئاسته الأولى، لتكون الأخيرة. ولعلنا نذكر الأحداث التي أشعلها الديمقراطيون من ديسمبر 2016 إلى يناير 2017 قبيل تنصيبه، مستفيدين من كل تمارينهم في «الثورات الملونة» و«الربيع العربي»، ثم مساعي تنحيته التي طالت حتى فشلت. ورغم كل مساوئ ترمب، بعنصريته البغيضة في الداخل والخارج، وفيما ارتكبه بحق الشعب الفلسطيني وقضية العرب الأولى، وانحيازه الاجتماعي لصالح كبار أصحاب الأعمال، إلا أنه كان وفياً لبرنامجه، إذ نجح في إعادة عدد من الصناعات الكبرى كالسيارات إلى أميركا وضرب أرقاماً قياسية في توفير فرص عمل جديدة. وبسبب تركيزه على حشد الإمكانيات من أجل الداخل، ابتزّ الخارج ماليا دون أن يتجه إلى إشعال حروب كبيرة فيما عدا الضربة التي وجهها ضد سوريا واغتيال قاسم سليماني.

إلا في هذه الانتخابات.. لم يلعب الاقتصاد دوره الحاسم. جائحة كورونا جرفت كل إنجازاته، ومقتل فلويد عقَّدتا الأوضاع بشدة. لولا الإثنتين لفاز ترمب بلا منازع. لكن المنافسات الانتخابية اتخذت مسارا آخر، هو امتداد للطابع العنفي واللاأخلاقي لانتخابات 2016، ما وضع أميركا على كف عفريت. لا أحد يجزم كيف ستسير عليه الأمور حتى 20 يناير 2021، لكن الواضح أن المسار القانوني والتقليدي بدأ يأخذ مجراه محفوفاً بخطر الارتداد. دعونا نأخذ بالمؤشرات القائلة أن جو بايدن سيصبح الرئيس المتوج في 20 يناير. لكن حظوظه ليست وافرة في أن «يصبح رئيس كل الأميركيين» كما يردد. أميركا منقسمة بالتساوي تقريبا، واستُنفذت إمكانيات الحشد الأفقي (كسب الأنصار). لا تزال مفتوحة فرص وصول النخب إلى تفاهم لوقف المواجهات. لكنها مع كل يوم يمضي تصبح أبعد منالاً، لتفسح الطريق أمام صراعات القوى بوسائل القوة. وهذا ما لا يتمناه المرء لبلد بعظمة أميركا وما لها من تأثير على العالم.

الإشارات تشي بأن طاقم أوباما سيحيط بايدن في البيت الأبيض ويجعله في «حضانته»، لكنه يستحيل أن يكرر بايدن صورة الرئيس أوباما، إذ أن برامج الأخير لم تعد تعمل لأسباب مهمة اعترفت ببعضها هيلاري كلنتون في مقالها «البرنامجي» منذ فترة في «Foreign Policy» الذي يُعتبر الاستراتيجية الفعلية «للدولة العميقة» في أميركا بشأن استعادة الهيمنة العالمية. وسوف لن نحتاج إلى الانتظار حتى 20 يناير لمعرفة نهج وطريقة عمل بايدن. فهاهي كلنتون صاغت الأسس في مفاهيم دقيقة وغير قابلة لازدواجية الفهم.

وأخذا بعين الاعتبار مكانة «آل كلنتون» في التصنيف السياسي الأميركي فإن حظوظ تطبيق هذه الاستراتيجية جد كبيرة. المفارقة أن المقال يتضمن اعترافاً قوياً بأن ترمب كان محقاً، ومن الصعب بعد رئاسته بناء استراتيجية دون تضمينها نقاط ارتكازية غرزها في التفكير السياسي هذا الملياردير النيويوركي الغريب الأطوار. فقد ذكرت أن الإدارات السابقة لكلا الحزبين لم تُقدِّر آثار السياسة الاقتصادية على الأمن الوطني حين أضعفت القطاعات الهامة استراتيجياً، وأبعدت سلاسل الإنتاج الحيوية إلى الخارج، وكان من المصلحة أن يعمد الديمقراطيون إلى إبطاء الاتفاقيات التجارية الجديدة. يتضح لنا مما تقوله كلنتون إن العولمة على الطريقة الأميركية قد ماتت (هل قتلها ترمب؟).

تولي كلنتون اهتماماً أكبر للصراع مع الصين أكثر من روسيا، التي تليها بعد الفاصلة دائما. فكرة التعايش السلمي معهما لا تخالجها مطلقا، وهي تفهم الدبلوماسية كأداة تهيئ فرصا أفضل للضغط بوسائل القوة. وفي العلاقة مع أوروبا ستطلب أميركا، إضافة إلى الدفع نقداً، القيام بأعمال تساعد أميركا لإحراز أفضليات قبالة الصين أو روسيا. الخبر الجيد الوحيد هو العمل على تجنب حرب نووية مع الصين أو روسيا، لكن إمكانية ضربات صاروخية (وإنْ غير نووية) تظلّ تثير القلق.

استخدام القوة ينسجم وتاريخ بايدن السياسي الذي يعتبر أن روسيا هُزمت في الحرب الباردة ولا يحق لها المشاركة في السياسة الدولية «العليا»، وأن مجمعها النووي يجب أن يخضع للمراقبة. لكن Bloomberg أفادت أن مسؤولين روس يقَيِّمون العلاقات مع الغرب كحرب باردة جديدة، المواجهة فيها أيديولوجية، حيث تدافع موسكو عن القيم المحافظة في وجه الليبرالية الغربية. بالنسبة للشرق الأوسط والخليج كان بايدن شديد الحماس للحرب على العراق، ثم إلى تشطيره ثلاثا. طبيعي أنه سيتناقض ورؤى ترمب المعادية للقضية الفلسطينية والمتهاونة تجاه الانتهاكات الإسرائيلية، لكنه لن يرتدَّ على "منجزات" ترمب، وسيكون أخفض سقفا من أوباما في هذا الصدد، وكذلك بالنسبة لقضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم. وبالنسبة لإيران يبدو أنْ ليس العودة للاتفاق النووي فقط ما سيشغل بال أميركا، بل وسيصبح إبعادها عن الصين هدفاً منشوداً.

ورغم اللغط الكثير حول كيف سيكون أثر الإدارة الأميركية، أو الدول الكبرى عموما، على الديمقراطية في منطقتنا، فقد أثبتت كل تجارب الماضي أنْ لا تعويل على قوى خارجية لتحقيق نقلة ديمقراطية حقيقية ما لم تكن موضوعة داخلياً على جدول أعمال جميع أطراف المعادلة، سلطة سياسية وقوى سياسية، كمشروع وطني تنموي نابع من حاجات الدول وشعوبها، عملاً بالقاعدة الذهبية "أنك إن اعتدت الإتكاء على عكاز، فستفقد القدرة على المشي".. تجربة مملكة البحرين العملية تقول أن ذلك ممكن إلى حد معقول. مثلا، أطلق جلالة الملك المشروع الإصلاحي بروح ميثاق العمل الوطني في بداية الألفية قبل أن تعلن الولايات المتحدة في عام 2003 مشروع التحويل الديمقراطي للشرق الأوسط الكبير. وقد نال المشروع البحريني خلال سنوات تطبيقه الأولى احترام العالم وغدا مثالاً قبل أن يتعثر فيما بعد، لأسباب يجب أن يراجع كل طرف مسؤوليته بشأنها. وفي هذا الصدد تبقى فكرة الحوار الوطني من أجل تجسيد الوحدة والإرادة الوطنية مطلوبة بإلحاح. ومع تقلد سمو ولي العهد لرئاسة مجلس الوزاء لنا، معا، الحق في أن نأمل ونسعى لهذا.

عودة إلى أميركا، فالأرجح أن بايدن لن يتمتع باستقلالية كافية، إذ يرى بعض المحللين أنه سيصبح الرئيس – الزومبي، لأسباب تعود إلى وصاية "الدولة العميقة"، وكذلك طبيعة التحالفات التي يعتمد على دعمها، والتي وَحَدَتْها مناهضة ترمب، من داخل وخارج الديمقراطيين – من قوى اليسار الراديكالي إلى اليمين الذي يضم ديمقراطيين وجمهوريين أيضا. عموما، بين الديمقراطيين يُحتسب بايدن على يمين الوسط. وإذا كانت هناك شكوك جدية في قدرة إدارته على إعادة توجيه الاقتصاد الأميركي صوب الإنتاج، فلا شكوك بأن للآلة العسكرية الأميركية حظوظ أوفر لمواصلة نشاطها حول العالم.

الترامبيِّة

فوزية مطر

مثلما ارتبطت حقبة أمريكية حالكة (١٩٤٧–١٩٥٧) بجوزيف مكارثي النائب الجمهوري في الكونجرس الأمريكي واكتسبت مسمى "المكارثيّة" (توجيه اتهامات بالتآمر والخيانة جزافاً دون الأخذ بالأدلّة)، كذلك سترتبط بدونالد ترامب الرئيس الأمريكي الخامس والأربعين حقبته الكارثيَّة وستكتسب مسمى "الترامبيّة"(اتخاذ قرارات ومواقف سريعة وفق مزاجية وأهواء فردية دون اعتبار لانعكاساتها السلبية على المجتمع الأمريكي وعلى العالم أجمع).

وإذا كان الضرر الذي خلفته "المكارثيِّة" كفكر وسياسة نائب واحد في الكونجرس قد انعكست حلكتها على الداخل الأمريكي فحسب، فإن "الترامبيِّة" كأداء وسياسات رئيس دولة هي القطب الأوحد عالمياً في المرحلة الراهنة، قد انعكست كارثيَّتها على المجتمع الأمريكي ودول العالم وذاق ويلاتها المجتمع الدولي برمته.

لم يأت الرئيس الأمريكي دونالد ترامب من خلفية سياسية، ولم يمر بتجربة عمل سياسي ذي قيمة تؤهله مثل سابقيه من الرؤساء الأمريكيين لتبوُّء المنصب السياسي الأول والأخطر والأكثر حساسية على مستوى العالم. جاء ترامب بخلفية رجل الأعمال الملياردير متنوع الاستثمارات من تشييد الأبراج ناطحة السحاب إلى نوادي القمار إلى الاستثمار في برامج الواقع التلفزيونية، فهو شخصية تلفزيونية شهيرة عالمياً أنتج وقدَّم برامج تلفزيونية عديدة ربح منها مئات الملايين من الدولارات. وفي كل ذلك هو المستثمر الذي يضع في أولوياته حسابات الربح لا الخسارة، ولا بأس لبلوغ ذلك من توظيف أكثر السبل التواء وتهرباً من الالتزامات.

يفصح المنتج الوثائقي بالإضافة لعديد التحليلات النفسية عن سمات شخصية الرئيس ترامب وماهيَّة أدائه كرجل البيت الأبيض ذي المنصب العالمي الأكثر حساسية وتأثيراً. شخصية حيوية، استعراضية محبة للظهور، طموحة يشغلها تحقيق النجاحات وبلوغ القمم فيها، وهي في ذلك تملك جلداً على امتصاص الانتقادات وتجاوز الإخفاقات بسبل شتى وطرق ملتوية. شخصية منفردة بالرأي، سريعة في اتخاذ القرار، نرجسية منتقمة غير متسامحة تجاه من لا يروق لها أو يختلف معها من قادة الدول والمسئولين. شخصية متكبرة تنظر للآخر باستعلاء ظاهر، لا تتورع عن الافتراء وتشويه السمعة والسخرية والتفوه بالكلام النابي. شخصية عنصرية تجاه المجموعات الاثنية والملونين وحتى ذوي الاحتياجات الخاصة.

رفع ترامب شعار "أمريكا أولاً" وأدار معاركه مع دول العالم مستلهماً الشعار، بيد أننا سنجد أن المجتمع الأمريكي كان هو الخاسر الأكبر خلال ولايته. ردَّد ترامب دوماً أن سياساته قد أسهمت في نمو الاقتصاد الأمريكي وفي توفير فرص عمل وفي ارتفاع الدخل العام للولايات المتحدة الأمريكية. على عكس ذلك يعلن الخبراء والمحللون الاقتصاديون المختصون أن سياسات الرئيس ترامب أفرزت مشاكل اقتصادية عديدة وقع الاقتصاد الأمريكي في براثنها على غير صعيد.

خاض ترامب حرباً تجارية واسعة ومتعددة الأوجه مع الصين التي تمكنت وبقدرات فذة مبهرة من تجاوز كل الإشكالات الاقتصادية والتجارية التي تسبب ترامب في بروزها. خاض أيضاً حرباً تجارية حول الألمنيوم مع كندا وثالثة مع المكسيك. ووفقاً لمعطيات التحليلات المختصة أضعفت تلك الحروب الأسواق الأمريكية وخلّفت عجزاً تجارياً اجمالياً ودفعت بالبنك المركزي الأمريكي لخفض أسعار الفائدة، كما ارتفعت الرسوم الجمركية ونسب إفلاس المزارعين.

اتبع ترامب سياسة عدم الاهتمام بحرب أسعار النفط الدائرة عالمياً بما فيها استئجار الناقلات فأفلس جراء ذلك ما يربو على الخمسين شركة أمريكية. انكمشت صناعات أخرى وتناقصت شيئاً فشيئاً نسبة إسهام قطاع الصناعة في الناتج الداخلي الأمريكي. أخذ الاقتصاد الأمريكي يتراجع وارتفعت الأسعار وانخفض معدل الأجور وتزايد عدد العاطلين.

اتَّبع ترامب سياسة اللامبالاة وعدم الاهتمام بمواجهة جائحة كورونا وقلَّل من خطرها ولم يلتزم شخصياً بالاحترازات الوقائية، بل ودعا حشود مناصريه إلى عدم الالتزام. كانت سياسته تلك وبالاً على المجتمع والاقتصاد الأمريكي. أصبحت أمريكا رائدة التطور الاقتصادي والعلمي والتقني عبر العالم ضمن أسوأ البلدان في إجراءات مواجهة الجائحة، والأعلى نسبة عالمية في عدد الاصابات بالفيروس وعدد الوفيات جرائه.

لقد ضربت جائحة كورونا الاقتصاد الأمريكي ضربة قاصمة فاتجه للمزيد من التراجع والانكماش ودخلت أمريكا ركوداً اقتصادياً فاق ركود 2008. تزايد ارتفاع الأسعار وفقد أكثر من عشرين مليون مواطن أمريكي وظائفهم، وبلغ عجز الموازنة 3.1 تريليون، وغدا الدين الفيدرالي أكبر من الناتج المحلي وذلك لم يحدث في الولايات المتحدة إلا إبان الحرب العالمية الثانية. اليوم يقدِّر المختصون الحاجة إلى 1.8 تريليون لإنعاش الاقتصاد الأمريكي من جديد.

على الصعيد المجتمعي أذكى ترامب وغذَّى انقسام المجتمع الأمريكي سواءً في حملاته الانتخابية أو لقاءاته الجماهيرية بتوظيف نزعته العنصرية الشعبوية وتحريضه على العنف. استجابت له مجاميع الأمريكيين البيض من الفئات المجتمعية المعوزة ذات المستوى التعليمي المتوسط خاصة فئات الشباب من الجنسين وجمهور برامجه التلفزيونية ممن يحلمون بمستقبل أفضل ويتمثلون الشهرة والثروة والنجومية التي يجسدها ترامب. وفي أوساط شعب يحمل الكثير من أفراده السلاح أذكت سياسات ترامب العنصرية توجهات العنف ضد الآخر والقتل التي ارتفعت بمستويات عالية لم يعرفها المجتمع الأمريكي على مدى عقد سابق لولايته. اليوم تنبئ غالب توقعات المراقبين بأن الولايات المتحدة الأمريكية مقدمة على المزيد من الصراعات ومن العنف.

على الصعيد العالمي خلق ترامب عداوات مع دول تحالف "بريكس"، وسوء علاقة مع دول المجموعة الأوربية وغيرهما. في الشرق الأوسط أذكت سياسات ترامب الصراعات والحروب في اليمن، سوريا، ليبيا، العراق، لبنان، إيران وغيرها ونهبت أموال وخيرات دول المنطقة العربية. والأدهى من كل ذلك أن سياساته ومشاريعه أضرَّت أيّما ضرر بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني بمستوى لم يسبق له مثيل منذ اغتصاب فلسطين 1948. إسرائيل هي الرابح الأكبر من ولاية ترامب، ولم تحلم بما قدّمه لها على طبق من ذهب في حزمة ما كُشف عنه ونُفِّذ من صفقة القرن، والخشية كل الخشية مما سيسفر عنه باقي بنودها.

سيظل العالم يتذكر لعقود طويلة أي ويلات كارثيَّة جلبتها "الترامبيِّة" على المجتمع الأمريكي وعلى العالم أجمع.

بصراحة

الإستراتيجية الأمريكية ...مابعد الانتخابات؟

كانت الانتخابات الأمريكية في الثالث من نوفمبر ٢٠٢٠ الماضي الحدث الأكثر جدلاً، فقد تابعها الملايين من الناس عبر العالم، وانشغلت بها معظم القنوات الفضائية والصحافة ووسائل التواصل الاجتماعي، فهي لم تكن انتخابات عادية كالتي تُجرى في هذه البلاد أو تلك، وكانت الآمال متناقضة حولها، فهناك دول ورؤساء وقادة وكتَّاب براهنون على فوز الرئيس ترامب المرشح عن الحزب الجمهوري، وآخرون بالعكس يراهنون على فوز جون بايدن المرشح الديمقراطي.

فاضل الحليبي

ولكل فريق حساباته ومصالحه في فوز هذا المرشح أو ذاك، ففي حين يشكل فوز الرئيس ترامب تعزيزاً لنفوذ القوى اليمينية والشعبوية في أوروبا وبعض البلدان حول العالم، وإعطاء شحنة معنوية لها، وطموح العديد منها الوصول للسلطة وأخرى الاستمرار فيها لتنفيذ أجندتها ومآربها، وفي بعض البلدان العربية كان قادة ورؤساء ومن حولهم يمنّون النفس أيضاً بوصوله، وكذلك الكيان الصهيوني الرابح الأكبر في عهد إدارة ترامب التي حققت له الكثير من أطماعه وتطلعاته، كنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، إغلاق مكتب بعثة منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن، ووقف الدعم المالي لوكالة الغوث "الأونروا» التي تُعنى بشؤون اللاجئين الفلسطينيين، للضغط على القيادة الفلسطينية لكي توافق على المشاريع التآمرية بما في ذلك "صفقة القرن" التي رفضتها كل الفصائل الفلسطينية، اتفاقيات التطبيع مع الإمارات والبحرين والسودان.

علماً بأن واشنطن لا يمكن أن تتخلى عن دعم إسرائيل، سواء وصل إلى البيت الأبيض جون بايدن أو بقي فيه ترامب، على حساب الشعب الفلسطيني الشقيق وقضيته العادلة، وحتى إنْ طُرحت حلول أو تسويات، فلن تغير واقع الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية المحتلة ولن تؤدي إلى إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس، فأولوية أي رئيس أمريكي هي عدم تمكين أي دولة من دول المنطقة من التفوق العسكري على الكيان الصهيوني.

أما في قضايا حقوق الإنسان والديمقراطية هناك تجربة ماعُرف (الربيع العربي) الذي تحوّل إلى (خريف عربي) في عهد إدارة باراك أوباما ووزيرة خارجيته هيلاري كلينتون، حيث تمَّ تدمير العديد من البلدان العربية ودعم قوى التطرف والغلو في المنطقة لتحقيق مآربها، فليس من مصلحة الإمبريالية الأمريكية ترسيخ الديمقراطية والحريات العامة في البلدان العربية، وبالأخص التي تصنفها ب (الصديقة) أو (الحليفة)، فالمهم بالنسبة لواشنطن ألا تتضرر مصالحها في المنطقة الحيوية في العالم والتي تحتوي أراضيها وبحارها على مخزون كبير من الطاقة يشكل أكثر من ثلثَي مخزون العالم.

واهم من يعتقد أن مجيء جون بايدن سوف يغير الوضع، هناك دوائر ومؤسسات تضع الإستيراتيجيات السياسية لا يمكن لأي رئيس أمريكي أن يخرج عنها، عليه تحقيق الأهداف والتخطيط الاستراتيجي الموضوع له سواء مع الحلفاء أو الأعداء .

ينسب للرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، قوله إنهم (اي الأمريكان) لا يذهبون إلى خارج الولايات المتحدة دفاعاً عن الديمقراطية أو الشرعية الدولية أو لمحاربة الدكتاتورية، بل "نذهب إلى هناك لأننا لن نسمح بأن تمس مصالحنا الحيوية»، وأهم المصالح الاستراتيجية للإمبريالية الأمريكية هي حماية آبار النفط، والحفاظ على الكيان الصهيوني.

وعلى صلة بهذا فإن (معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى) أصدر تقريراً عن الاستراتيجية الأمريكية عن الشرق الأوسط وضعته مجموعة من كلا الحزبين الأمريكيين – الجمهوري والديمقراطي – وتضم خمسة أشخاص من بينهم اثنين من مستشاري الأمن القومي السابقين، صمويل بيرغر وستيفن هادلي؛ والسفير الأمريكي السابق في العراق وتركيا جيمس جيفري؛ ومسؤول سابق في إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما ومبعوثاً للسلام في الشرق الأوسط لفترة طويلة دينيس روس؛ والمدير التنفيذي لمعهد واشنطن روبرت ساتلوف.

يرى واضعو التقرير أن "الهيكلية الكاملة لنظام الدولة في الشرق الأوسط معرضة للخطر»، ويقدّمون عناصر لقيام استراتيجية جديدة لمواجهة «هذا التهديد العميق للمصالح الأمريكية، تنطلق كالعادة من التأكيد على أن العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل "مهمة للغاية بالنسبة لكل طرف وهي بمثابة دليل ريادي على الالتزام الأمريكي تجاه حلفاء واشنطن في المنطقة، لدرجة أنه لا يجب السماح بتدهورها أكثر مما هي عليه الآن.

وتطرق التقرير للأوضاع في سوريا والعراق وبعض البلدان العربية، مشيراً إلى القوى التي على الولايات دعمها أو تمكينها من الوصول إلى السلطة وامتلاك النفوذ والقوة، مما يشير إلى أن استراتيجية وخطط وأهداف الإمبريالية الأمريكية في المنطقة واضحة، لن تتغير بمجيء الرئيس الجديد، فهناك قوى مالية وصناعية احتكارية من خلال معاهد ومؤسسات ترسم وتخطط وتأمر بالتنفيذ لتلك السياسات الخارجية والداخلية ولا يمكن لأي رئيس أمريكي الخروج عن مسارها .

وسيظل العرب خاسرين دائما، خاصة فيما يتصل بالقضية الفلسطينية، طالما بقيت هذه استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية، ما يحتم علينا البحث عن شركاء وأصدقاء يدعمون القضايا العربية، وتعزيز المشاركة الشعبية في القرار السياسي بترسيخ الديمقراطية في المجتمع العربي والتوقف عن انتهاكات حقوق الإنسان وممارسات التمييز والكراهية ضد الآخر والتصدي للفساد واحترام حقوق الأقليات القومية والمرأة وغيرها من الحقوق المشروعة.

النسوية في موجتها الرابعة .. أين نقف منها!

تعيد الحركة النسوية في الآونة الأخيرة إنتاج نفسها في العالم، أو ما يعرف بالموجة الرابعة لهذه الحركة التي بدأت موجتها الأولى في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، من رحم البيئة السياسة الإشتراكية اللبيرالية والتي هدفت إلى فتح الفرص للنساء مع التركيز على حق الإقتراع.

وفاء العم

التحرك عملياً بدأ في مؤتمر سينيكا فولز في 1848، ثم صاغت مبادئه إليزابيث كادي ستانتون فيما يسمى إعلان سينكيا فولز، وتزامنت هذه الحركة مع دعوات حق المرأة في التصويت بالإضافة إلى حركات مطالبة بإلغاء الرق.

الموجة الثانية بدأت في الستينيات من القرن الماضي واستمرت حتى التسعينيات، بالتزامن مع صعود الحركات المناهضة للحرب والمطالبة بالحقوق المدنية وحقوق الأقليات في العالم، غير أن هذه الموجة أتسمت بخطاب متشدد وراديكالي بحسب وصف الكثير من المهتمين بالحركات النسوية، كما أن الموجة الثانية كان خزّانها الرئيسي من النساء ذوات البشرة السوداء تحت شعار التضامن، وأن الصراع طبقي ورفعوا حينها شعارات مناهضة التمييز.

أما الموجة الثالث فجاءت مكملة لمبادئ الموجة الثانية مع صبغة شبابية أكثر، لكونها مرحلة نضالات فردية أكثر منها حركة جماعية تحت عنوان "لم نعد بحاجة للنسوية".

أما الآن والعالم يشهد صعوداً للموجة الرابعة، التي تبدو أكثر وضوحاً وتحمل إمتدادات أكثر عمقاً وتجذراً من سابقتها، فيجدر بنا السؤال عن مفهومنا المحلي للنسوية، عن مدى ابتعادنا أو قربنا من هذا المفهوم، عن قبولنا أو رفضنا له ولماذا، أيضا من المهم أن نسأل عن مدى فهمنا الصحيح للنسوية وقدرتنا على فصل الأهداف عن الخطابات، خصوصا أن هذا المفهوم ارتبط في العديد من المراحل بخطابات وشخصيات نسائية راديكالية أثرت على تبني أو قبول العديد من المجتمعات لهذه الأهداف، ما يحتم علينا ضرورة وضع الأهداف على الطاولة وقياس مدى قدرة مجتمعاتنا على استيعابها وقبولها.

تهدف النسوية بطبيعة الحال إلى الدفاع عن حقوق المرأة، والمساواة بين الجنسين في السياسية والاقتصاد والحياة الإجتماعية. وفي مسألة المساواة تحديداً هناك خلط كبير في المفاهيم. خلط أو لبس بين مفهومي المساواة والتماثل، كأن نقول المرأة "نفس" أو "مثل" الرجل، وعلى اعتبار أن الرجل يمتلك قدرات جسدية أكبر، فبالتالي لا يمكن للنساء أن يكنّ مثل الرجال، وهنا يكمن الخلل أو التضليل الحاصل في المفهوم، الأمر الذي أوقع بعض النسويات أنفسهن في الفخ ودفعهن إلى خوض معارك لا معنى لها في تحدي اجسادهن من باب اثبات القدرات الجسدية عبر العمل في مجالات الأعمال الشاقة وغيرها، ورغم أن هذا خيارهن ولكن من المهم أن ندرك أن "نفس" لا تعني "متساو» لأن عدم المساواة الجسدية لا تعني عدم الحصول على حقوق متساوية.

على سبيل المثال طفلاك من نفس الجنس ويتمتعان بقدرات ذهنية ومؤهلات شخصية متساوية ولكن أحدهما أقل في قدراته الجسدية هل يصح منع الطفل الأضعف من الحصول على حقوق متساوية مع الأقوى بنية؟!

مثال آخر، طالبان في نفس الصف أحدهما لديه قدرات جسدية أكبر من الآخر، هل يصح منع الضعيف من الحصول على الموارد التعليمية وفرص تطوير المهارات بسبب ضعف قدراته الجسدية؟ إذا كيف لنا أن نعمق فهمنا لمسألة المساواة؟

اعتقد، أولاً، من المهم أن نتجاوز حصر مسألة المساواة في المرأة فقط، كطرف مازال هو الأضعف في المجتمع طبعا، إلى الإيمان بجوهر المبدأ أن كل إنسان، يستحق حقوقًا متساوية وفرصاً متساوية بغض النظر عن جنسه أو دينه أو لونه أو عرقه، وإذا كان هناك من تثير هذه الفكرة مخاوفه، فعليه أن يكون صريحاً مع ذاته عن منبع هذه المخاوف ودوافعها، وربما هي الخطوة الأولى في مسار أحداث أي تحول في نمطية التكفير لدى الأفراد والجماعات.

ومن ثم يأتي السؤال الآخر للمعارضين، لماذا تعارض أن تحصل المرأة على حقوق متساوية بالكامل على كل الاصعدة. هل من العدالة أن تحصل مجموعة على كل الفرص، وتحرم فئات أخرى فقط لأن هناك اعتقاداً بأنها ضعيفة، ما سبب ضعفها هل هو ضعف أصيل أم هو نابع من منظومة المجتمع، وبصراحة علينا أن نكون صادقين مع انفسنا قبل الإجابة على هذه الأسئلة.

وأخيرا، هل المساواة تمنع وصول المجتمعات إلى تنمية حقيقية أم أنها الاستثمار الأول في التنمية البشرية؟!

الإجابة على هذه الاسئلة كفيلة بأن تساهم في وضع أسس ننطلق منها في تبني أو رفض أي تحرك نسوي.

من جانب آخر، لابد من تسليط الضوء على الأسباب التي دفعت مجتمعات وأشخاصاً إلى رفض أي حركة نسوية أو حتى التعاطي مع هذا المفهوم، وعلى رأسها الصورة النمطية المتمثلة في ارتباط الحركة النسوية بالمرأة القوية والمناكفة للرجل وذات الشخصية الصدامية، بالإضافة إلى وجود إعتقاد أن المرأة تريد إزاحة الرجل من واجهة المجتمع بغرض سحب بساط التأثير والسيطرة منه، والأهم الذي يمسّ مجتمعاتنا هو الاعتقاد أن النسوية ستقلب العادات والتقاليد رأساً على عقب، وستغير طبيعة الأدوار الراسخة بين الجنسيين وستمسّ المعتقدات الدينية، وهذا أمر لابد من وضعه في الحسبان عند مخاطبة المجتمعات.

عموماً، هذه المخاوف والمواقف المسبقة من شأنها أن تتلاشى إذا ما وضعنا مسألة المساواة في نصابها الصحيح، وصححنا المفاهيم والصور النمطية والمعتقدات الخاطئة التي صاحبت النسوية. حينها سنكون أكثر استعدادا للاستقبال الصحيح. وفي نهاية المطاف احترام المعتقدات والقيم والمثل العليا في المجتمع عندما توضع في عين الاعتبار خلال أي تحرك أو نشاط مدني يكون له تأثير أكبر من التحركات التي تجنح للتصادم مع القيم الاجتماعية الراسخة. هذا ما أثبتته العديد من الدراسات مؤخراً.

وختاماً، أمام كل التحركات العالمية من أجل تمكين المرأة ووضع هذا الملف ضمن الأهداف العالمية للتنمية المستدامة وفي ظل صعود الموجة الرابعة للحركات النسوية للعالم أين نحن؟ وماذا أعددنا لها على صعيد المجتمع النسائي الناشط؟ ما هي المعوقات والتحدّيات وكيف يمكن مواجهتها للسير على الخطى العالمية؟!

المعلقات والمهجورات ومظاهر العنف ضد المرأة

الزواج علاقة مقدّسة وتنمّ عن أوثق العلاقات الإنسانيّة الّتي تجمع شخصين، وعنوان هذه العلاقة المودّة والرحمة التي تؤسس البنيان المتين لهذا الزواج، وبالتّفاهم والمحبّة يستطيع الزوجان حماية علاقتهما بكل وعي ومسؤولية، بعيداً عن الخلافات الّتي تصل بالعلاقة الزوجيّة إلى مزالق خطيرة تهدد أمن الأسرة واستقراره.

دينا الأمير

إن هجر الأزواج للزوجات مأساة تعانيها النساء في العديد من المجتمعات العربية، وهي ظاهرة من مظاهر العنف ضد المرأة، وحين يتعنت الزوج ولا يطبق قاعدة إمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان تظهر إلى الوجود شريحة من النساء يسمون «بالمعلقات»، وهن اللواتي هجرهن أزواجهن ورفضوا إنهاء العلاقة الزوجية بالطلاق، فهي لا مُتزوجة ولا مُطلقة، وقد تتعرض بشكل يومي لأذى الزوج وسوء معاملته وعنفه، وتزداد نسبة المعلقات يوماً بعد يوم، ويعدّ ملف المهجورات والمعلقات، ملفاً شائكاً ومعقداً، وقد حان الوقت لمراجعة القوانين والأحكام وإعادة صياغتها من جديد لإنهاء معاناة الكثير من النساء.

إن الزواج شراكة بين الرجل والمرأة، والزواج والطلاق يتصلان ببعضهما اتصالاً وثيقاً، وهما قضيتان ضروريتان اجتماعياً. وكما هو معروف فإن الزواج ينعقد باتفاق إرادتي الرجل والمرأة معاً، ولكن في حال عدم توافق الشريكين وفشل العلاقة الزوجية، فكل القوانين العربية تعطي الزوج حق إيقاع الطلاق بإرادة منفردة ولا رأي فيه للزوجة ولا تملك منعه، وهو حق خالص للزوج، إذ تعمل القوانين العربية بالقاعدة الغالبة وهي أن الأصل في الطلاق أن يكون بيد الرجل.

وأمام هذا الوضع يغلب طابع اللامساواة بين الجنسين في حق طلب الطلاق، والذي يعتبر شكلاً من أشكال العنف القانوني الذي يمارس ضد المرأة، عدا القانون التونسي الذي جعل الطلاق أمام المحكمة وحقاً لكلا الطرفين وبالتساوي.

في البحرين هناك العديد من النساء المعلقات اللاتي ينتظرن إنهاء معاناتهن لسنوات بسبب طول مدد التقاضي في المحاكم وخاصة في المحاكم الشرعية الجعفرية، والتي تتزاحم فيها مئات القضايا لنساء ينتظرن الخلاص من زواج فاشل والحصول على الطلاق أو الخُلع أو حضانة أو نفقة دون جدوى، وذلك لصعوبة ذلك.

وعلى الرغم من وجود قانون الأسرة الموحد والذي بدأ العمل به في عام 2017، ووجود نصوص صريحة لا تؤيد التعليق "فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوف أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»، فإنه عند تعرض المرأة لأي ضرر لا تجد ملجأ إلا بحلين إما رضاءً أو قضاءً.

وإنهاء العلاقة بالتراضي قليلاً ما تكون بالقضاء وذلك بسبب تعنت الرجل وعدم موافقته على ذلك، وعند لجوء المرأة للقضاء لطلب التطليق نجد أن بعض القضاة يتعسف ويتشدد في السلطة التقديرية بسبب عدم وجود البينة، فتذهب إلى خيار الخُلع. وقانون الأسرة البحريني يجيز للمرأة أن تلجأ للقضاء لتطليقها وإنهاء عقد الزواج وذلك بدفع مقابل مادي للزوج (الخُلع). وفي الفقه الجعفري يعلق قبول دعوى الطلاق على موافقة ورضا الزوج وتصبح المرأة معلقة إذا رفض الزوج تطليقها.

وهنا تكمن المشكلة، حين يكون الرجل مصدر قوة ويطالب بأضعاف المهر المقدّم للزوجة لإنهاء الزواج، والقانون يعطيه الموافقة على ذلك، وتكون المرأة تحت رحمة الزوج وتصبح معلقة ويذهب لحياته إذا لم تدفع له المبلغ المطلوب. ومازالت هناك الكثير من القضايا المعلقة في المحاكم الشرعية لحالات من النساء اللاتي لا يستطعن التقدم بالخُلع لظروفهن المادية وينتظرن النطق من جانب الزوج.

وبحسب بعض المتضررات، تعاني النساء في المحاكم الشرعية بسب الإطالة والتي قد تصل إلى خمس سنوات أو أكثر للحصول على الطلاق، كما أن بعض القضاة لا يطبقون القانون ولا الشرع ولا ينصفون المرأة. بالإضافة إلى أن المدة بين كل جلسة وأخرى تستغرق شهراً أو أكثر، ويحتاج الأمر لسنوات طويلة لإنهاء الطلاق، بما في ذلك من إذلال وإهانة لكرامة المرأة. ولكم أن تتخيلوا أن الحصول على الطلاق أصبح لبعض النساء فرحة خاصة إذا كانت تعاني من زوج لا يرحم ومحاكم لا تنصفها.

المرأة المعلقة أو المهجورة تعتبر فئة معطلة في المجتمع، ففي الوقت الذي يحتاج لها المجتمع للمشاركة في عملية التنمية والاستفادة من طاقاتها وعلمها، وحاجتها للعمل لإعالة نفسها وأولادها وتربية أطفالها ورعايتهم، نجدها تقضي سنين عمرها بين أروقة المحاكم بحثاً عن الخلاص وإنهاء الزواج، أو قد تستدين لتدفع للزوج ثمن حريتها، ناهيك عن الحالة النفسية التي تمرّ فيها بسبب كل هذه الظروف.

أسئلة عديدة تتبادر إلى أذهاننا، لماذا لا يحق للمرأة اللجوء أو اختيار المحكمة التي ترتأيها – المحكمة الشرعية السنية أو الجعفرية – لتسيير أمورها دون مماطلة؟ لماذا يتم تصنيف المواطنين حسب مذاهبهم في المحاكم؟ لماذا لا يتم التعامل مع المرأة على أساس أنها مواطنة لها حقوق وعليها واجبات مثل الرجل؟ لماذا يصبح الطلاق خاضعاً لمزاج القاضي الذي لا يطبيق القانون ويتحيز للرجل؟ أين القانون من مساومة الزوج على قيمة مبلغ الخُلع والذي يصل في أحيان كثيرة لآلاف الدنانير لموافقته على الطلاق؟ هل هناك ثغرات قانونية يستغلها البعض لصالحه؟ وغير ذلك من الأسئلة التي لا تجد المرأة لها إجابات شافية.

باتت الحاجة ملحة لتعديل قانون الأسرة ليواكب العصر وينصف المرأة، وتوجيه الدعوة للفقهاء إلى إعادة النظر في القانون مستندين على "لا ضرر ولا ضرار"، كما على القضاة المتنورين أن تكون لهم بصمتهم وحضورهم والضغط لتعديل القانون رأفة بالنساء، ويجب العمل على رصد الحالات المعلقة في المحاكم لتسليط الضوء عليها وإيجاد حل سريع لهذه الفئة. إضافة إلى ذلك من المهم توعية القضاة بالقانون وكيفية التعامل مع الحالات التي ترد لهم حفاظاً على كرامة المرأة وسلامتها.

الليندي حاضر لم يمت

دروس انتفاضة تشيلي التشرينية

لم يكن مفروشاً بالورود الانتصار الذي حققه شعب تشيلي بقيادة قواه الوطنية والديمقراطية في استفتاء اكتوبر/ تشرين الأول الذي أسفر عن تصويت الغالبية العظمى (بنسبة ٧٨ بالمائة من الناخبين)، لصالح إلغاء الدستور الموروث من عهد الدكتاتور الراحل أوغستو بينوشيه ولصالح دستور عقدي جديد، فهذا الانتصار جاء نهاية طريق طويل مغمس بالدم لنضالات ٤٧عاماً (١٩٧٣ – ٢٠٢٠) خاضها الشعب التشيلي بجسارة وقدم خلالها تضحيات هائلة تتوجت بانتفاضته التشرينية في اكتوبر / تشرين الأول من العام الماضي ٢٠١٩ والتي أُطلق عليها أحد التقارير الإخبارية لقناة فرانس ٢٤ «الثورة المفقؤة» لكثرة ضحاياها من الجنسين التي فقأت أعينهم بتصويب متعمد من قوات الشرطة.

رضي السمّاك

لا أحد من الشعب الأميركي يجهل ماذا يعني تاريخ 11 سبتمبر/ أيلول عام 2000 ؛ لكن قلة منهم من يعرف ماذا يعني تاريخ 11 سبتمبر / أيلول من عام 1973 لشعب تشيلي باعتباره اليوم الذي ارتكب فيه الدكتاتور المدحور أوغستو بينوشيه خلال انقلابه العسكري على الرئيس المنتخب سلفادور أليندي مذابح شنيعة بحق خيرة أبناء شعب تشيلي البررة بتخطيط ودعم من وكالة المخابرات الأميركية (CIA).

وفي الانتفاضة التشرينية، ورغم مرور 30 عاماً من سقوط النظام الفاشي منذ1990 فإن ميراثه القمعي كان حاضراً بقوة لما يتبدد بعد؛ متمثلاً فيما أرتكبته قوات الشرطة بحق المنتفضين السلميين من جرائم لا تقل فظاعةً عما أرتكبه أسلافها في عهد الدكتاتور المدحور، فنحو ألف وخمسمائة شاب وشابة جرى اعتقالهم خلال تلك الانتفاضة، وأكثر من 30 سقطوا شهداء، فيما فُقأت أعين المئات، وبضمنهم مراسلون ومصورون صحفيون ذكوراً وإناثاً.

ومثلما كان الإرث الوحشي القذر لعهد بينوشيه في قمع الانتفاضة حاضراً كانت الرموز الوطنية من ضحايا انقلابه حاضرة لم تغب من ذاكرة الشعب، فقد كان الثوار المنتفضون يتجمعون في ذكرى مقتل الليندي بالقرب من قصر الرئاسة وهم يهتفون "الليندي حاضراً خالداً لم يمت". كما تجمعوا أمام الملعب الذي عُذّب فيه حتى الموت فنان تشيلي الوطني الكبير فيكتور جارا، والذي سُمي في 2003 بإسمه، وكانت الحركة النسائية المطالبة بالمساواة وملاحقة رجال الشرطة المغتصبين حاضرة خلال الانتفاضة متحدية فقء العيون والملاحقة.

على أن انقلاب بينوشيه ترك ندوباً ودروساً عظيمة لا في تشيلي وحدها؛ بل على صعيد الحركة اليسارية العالمية، ففي الوقت التي تقطع حركات يسارية بعدم جدوى النضال السلمي في ظل الأنظمة الاستبدادية بغض النظر عن مدى توافر الشروط الملموسة لاعتماد النضال المسلح، وكانت قيادة الثورة الكوبية في الغالب مع هذا التوجه؛ وليس خالياً من الدلالة في هذا الصدد البندقية التي أهداها جيفارا إلى الرئيس الليندي والتي دافع بها خلال قصف قصر الرئاسة، وقيل بأنه استخدمها في إطلاق النار على نفسه كي لا يقع أسيراً في أيدي الإنقلابيين.

وبموازاة ذلك جرت في أعقاب انقلاب تشيلي وانتكاسة التجربة الاشتراكية القصيرة (1970 – 1973) حوارات فكرية بين مدارس اليسار والفكر الاشتراكي العالمي على صفحات الدوريات والمجلات النظرية، وفي اللقاءات والندوات العلمية حول جدوى النضال السلمي للوصول إلى السلطة وبناء الاشتراكية في البلدان التي تتبنى أحزابها وقواها هذه الطريق في ظل أنظمة لا تتورع طغمة عسكرية فيها عن الدوس على الدستور وأُسس النظام الديمقراطي فيها دون حصانات مكينة رادعة تصد بقوة عسكرياً وشعبياً ودولياً مثل هذه الانقلابات على السلطة المنتخبة، وهذا لا يتحقق إلا في ظل سلطة برجوازية قطع نظامها السياسي شوطاً كبيراً من التطور والممارسة الديمقراطيتين على غرار الأنظمة الديمقراطية الغربية بحيث تكون ذات قدرة على شل أيدي العسكر في مطلق الأحوال عن الانقضاض على السلطة دون تفويض دستوري صريح .

ولعل هذه المهمة هي على رأس أولويات المجلس التأسيسي المنتخب لسنّ دستور ديمقراطي عصري جديد يسمح بتطهير ما تبقى من مواريث وأدران أجهزة القمع في الشرطة وأجهزة السلطة التنفيذية عامة، ويؤسس لسلطتين قضائية وتشريعية مستقلتين.

الغرب والإسلاموفوبيا

جلال إبراهيم

الإسلاموفوبيا تشتد من جديد بعد جريمة قتل مسلم لأستاذ فرنسي أساء للنبي محمد(ص) وبعد التصريحات المهينة والمستفزة للمسلمين من قبل الرئيس الفرنسي ماكرون.

يقصد بالإسلاموفوبيا نزعة الكراهية للإسلام، والتخويف منه، انطلاقاً من تزييف حقائقه الكبرى وصورته الحضارية الأصيلة. وظاهرة الإسلاموفوبيا، هي ظاهرة غربية، عبرت عن موقف الغرب الأوروبي تجاه الشرق الإسلامي إبّان سعيه الحثيث للهيمنة على الشرق ونهب ثرواته وتحويله إلى تابع للمركزية الحضارية الأوروبية. وعداء الغرب الاستعماري للشرق عامة، وللعرب خاصة يعود لزمن الإغريق والرومان في عداوتهم للفينيقيين في شمال إفريقيا وفي حربهم على تدمر الآرامية وملكتها زنوبيا. وقد اشتدّ كره الغرب للعرب بعد قيام الدولة الإسلامية وهزيمة الرومان والصليبيين في معارك عديدة على يد المسلمين.

وفي واقعنا المعاصر، تحديداً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار المنظومة الاشتراكية، عاد الغرب السياسي ليتخذ من الإسلام عدواً، أحلّه محل الخطر الشيوعي، وليبني على ذلك وضع استراتيجيات توسعية خبيثة لا زالت نتائجها الكارثية على الدول العربية والإسلامية شاهدة للعيان.

تعمل الأوروموكزية على تثبيت كذبة مفادها أن الغربيين سادة التاريخ ومصدر العلوم والمعرفة والفلسفة، وغيرهم من الأمم والشعوب لم ينتجوا إلا العنف والتوحش والتخلف، خصوصاً عند الحديث عن تاريخ العرب والمسلمين. كحقيقة تاريخية ساهمت مختلف الشعوب والأمم في صناعة الحضارة البشرية بنسب متفاوتة، وأن مسألة العنف والتوحش وجدت بصورة أو بأخرى في تاريخ كل الحضارات الكبيرة عبر مراحل التاريخ المختلفة، وليس فقط عند المسلمين كما يدعي الأوروبيون المعاصرون.

لا أقصد من الفقرات السابقة أن أنفي وجود التعصب الديني، وانتشار الجماعات التكفيرية والإرهابية التي تقتل باسم الله والدين في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، فمن الواضح وجود خلل كبير في فهم الدين الإسلامي عند الكثير من المؤسسات والجماعات الإسلامية التي تمثل النقيض لتعاليمه الداعية للوسطية والاعتدال. ومن المؤسف أن خطاب التكفير والعنف الذي تنشره مثل هذه الحركات كالقاعدة وداعش يلقى تجاوباً عند بعض الفئات، لا سيما الشباب منهم، والذي يصبح أكثر خطورة عندما ترتبط هذه الجماعات بالاستخبارات الدولية فتمدها بالمال والسلاح وتدمر بها البلدان والأوطان.

إن الرسومات المسيئة لنبي الإسلام محمد(ص) عمل مرفوض ومدان، ومن حق المسلمين التعبير عن غضبهم ورفضهم لها، ولكن من غير المبرر استخدام العنف والقتل تجاه من رسمها وقطع رأسه، أو الاعتداء على الفرنسيين انتقاما منهم على إساءة فرنسي لشخص الرسول (ص). ومن الملاحظ أن تكرار الإساءة للمسلمين ولنبيهم من قبل سياسيين ورجال دين ومثقفين أوروبيين يؤكد وجود إشكالية كبيرة في الخطاب الرسمي والديني للدول الأوروبية تجاه الإسلام والمسلمين.

تجدر الإشارة إلى أن أغلب الأشخاص المسلمين الذين يقومون بعمليات إرهابية من طعن بالسكاكين أو إطلاق الرصاص أو التفجير للضحايا المسالمين والأبرياء في أوروبا هم من القاطنين والمستقرين فيها. تشير العديد من الدراسات إلى أن الكثير

من المسلمين في فرنسا وغيرها من دول أوروبا هم من العاطلين عن العمل ويعيشون في أحياء سكنية فقيرة، الأمر الذي يسهل على جماعات الخطاب التكفيري والإرهابي بالتأثير عليهم واحتوائهم . لذلك على إدارات الدول الأوروبية تحمل المسؤولية في الابتعاد عن التمييز العنصري والديني لقطع الطريق على أصحاب الأفكار المتعصبة والمتخلفة.

أيّـدَ بعض المسلمين العمل الشنيع الذي قام به الشاب المسلم ذو الأصول الشيشانية في قتل الأستاذ الفرنسي وقطع رأسه، حيث يرى هؤلاء بأن الإساءة للنبي محمد (ص) يجب أن تقابل بالإرهاب والقتل من أجل الردع القوي لمن تسول له نفسه في التطاول على خاتم الرسل محمد بن عبد الله. لكن هل بالعنف تتوقف الإساءات؟ أليس القتل والإرهاب يُسيء لصورة نبي الرحمة محمد ولصورة الإسلام والمسلمين؟ ما أوذي نبي كما أوذيَ محمد (ص)، غير أنه بالخلق الرفيع والكلمة الحسنة وبالمحبة والتسامح أسرّ قلوب الناس من مختلف الشعوب والأمم.

علينا كعرب ومسلمين أن نؤسس لخطاب إسلامي معاصر تكون بنيته رفيعة على مستوى اللغة والأفكار والأهداف والمقاصد والوسائل. فمن أهم أهداف هذا الخطاب أن يقدم صورة حقيقية ومشرقة للإسلام وأخلاقه وتعاليمه، وأن تقف بالمرصاد المؤسسة الرسمية (الدولة) والمؤسسة الدينية لأي خطاب يدعو للتعصب والكراهية والعنف. خطاب ديني يحافظ على وحدة الأمة ويرسخ قيم المحبة والتسامح والانفتاح على الآخر المختلف في دائرة الإسلام وخارجه.

من السبعين إلى التسعين

أمـي والــرؤيـــة

لم تكن امي حين بلغت السبعين من عمرها واهنة أو ضعيفة، بل سيدة نحيفة، خفيفة الوزن وسريعة الحركة، تنتقل كالفراشة بين الغرف والأحواش، تصعد أدراج بيتنا القديم وتهبط بسرعة قياسية، ولم تكن تعاني أي مرض من أمراض الشيخوخة، فلا ضغط دم ولا سكر ولا هشاشة جسدية أو ذهنية، حتى النظارة الطبية لم ترتدها إلا في منتصف الستينات من عمرها ومن أجل الخياطة فقط.

كان أول قرار اتخذته العائلة بشأن امي في هذه المرحلة الزمنية هو إيجاد دور جديد لها ونقلها إلى بيت آخر بتصميم عصري، بيت يناسبها ويناسبنا نحن أيضا حيث سنقضي في هذا البيت أياماً وأوقاتاً كثيرة، ادماج أمي في حياتنا قرار تشاركناه معا، نحن الأبناء الاربعة عشر، فليست امي هي تلك الشخصية السهلة المستسلمة لعمرها أو القانعة والراضية بقدرها الجديد المحدود، ولا نحن قادرون على الإستغناء عنها أو منحها مساحة صغيرة أو هامشية في حياتنا، وهي المرأة الاستثنائية الجبارة التي أنشأت وادارت عائلة كبيرة وحدها دون معين، ولقد بذلت أمي كل ما بوسعها، بل وناضلت من أجل هذا الإدماج، أي أن نكون جزءاً من حياتها، وتكون هي جزءا من حياتنا، تلك كانت رؤية أمي، وقد تحقق لها ما أرادت وما تمنت وما سعت من أجله.

عصمت الموسوي

في العام 2003 حين دخلت بيتها الجديد، كان الأبناء جميعا قد تزوجوا واستقروا في حيواتهم الجديدة، وكانت أمي تخطو نحو الخامسة والسبعين، لكنها، هنا في هذا البيت، بدت كامرأة جديدة ومتفرغة لهواياتها وصداقاتها ومشاريعها وضيوفها وأبناءها وأحفادها، وفي نسج علاقات جديدة ومختلفة وتبادلية مع كل فرد في أسرتها الكبيرة، وكانت تفاجئنا بل وتتفوق علينا في حيويتها وأفكارها وفي توقها الدائم للتغيير وعدم استكانتها للجمود، احتفلنا معها بأفراحنا وانجازاتنا وتشاركنا امنياتنا وطموحاتنا، وكانت هي في قلب هذه المناسبات من زواج وولادات وأعياد ميلاد ومشاريع عمل وسفر.

سافرت أمي مع أغلب ابناءها اثناء مرحلة تلقي تعليمهم العالي في الخارج، مصر والهند وبريطانيا وأمريكا. ثم سافرت معنا لاحقاً في رحلاتنا السياحية إلى سوريا ولبنان والقاهرة ودول الخليج وتركيا وإيران، ثم اخذناها إلى رحلات استجمام وعلاج إلى الأردن وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا ولبنان، ثم رافقت اختي الصغيرة في رحلة ولادة ابنها البكر في أمريكا، وتلك كانت رحلة طويلة ومرهقة لامرأة في منتصف السبعين من عمرها، بيد أن إصرارها على التواجد معنا في أهم الأيام وأصعبها يشي برغبتها الشديدة في عدم الانفصال عنا، وبعشقها لمواجهة الصعاب وحب المغامرة والتجربة واختبار اقصى درجات التحمل والصبر.

ذات مرة لقيت صعوبات عديدة في إحدى رحلاتها فظلّت تردد «يفترض بامرأة في عمري ان تكون مستقرة في بيتها لكني أصارع الدنيا عنوة وغصباً عني وعنها».

تغلغلت أمي في أدق تفاصيل حياتنا. كان بيتنا في النعيم في وسط المنامة محطة عبور أساسية لنا جميعا بعد رحيلنا وانتقالنا منه، وكان هو «المطعم» أو "المضيف» لموظفي المنامة من أبناءها وأحفادها لاحقاً والذين يفدون اليها من مقار أعمالهم في العاصمة ظهراً وعصراً ومساءاً، أما بيتها التالي في «أبو صيبع»، فقد توسط أغلب بيوت أبناءها، وهي التي باركت اختيار موقعه وحرصت على تأثيثه واختارت ألوانه الزاهية البراقة وملأته بالنباتات والزهور.

ادماجها في حياتنا نهج سرنا عليه جميعاً ما أمدّ في عمرها وجعل شيخوختها سعيدة ومتجددة، وحقق للأسرة وحدتها وترابطها واجتماعها على مصالحها ونبذ الخلافات والشقاق والفرقة بين أفرادها.

حين كبرت العائلة وتمددت وجاء الأحفاد وبرزت الإشكالات العائلية المعتادة لأي اسرة كبيرة، قررنا أن نتعاطى مع هذه المستجدات ضمن مجلس خاص للعائلة، وأبقينا أمي بعيدة إلى حد ما عن هذه الأعاصير العابرة حماية لصحتها وقولونها العصبي، لكن سرعان ما تحوّل هذا المجلس إلى نواة لحصد وتتبع إنجازات أبناء العائلة واحفادها في مجالات التحصيل العلمي والوظيفي، وجاءت أمي إلى هذه الاحتفالات لتوزيع الأوسمة وشهادات التفوق والهدايا، قالت امي لاحقاً: إن تلك كانت أجمل لحظات عمرها.

وحين وهنت صحتها وتعذّر عليها المشي والحركة، جئنا بالصور وبأفلام الفيديو إلى سريرها وحرصنا على أن تعرف وترى وتشارك معنا بحواسها وبقلبها ووجدانها، وتفرح وتشجع وتبدي رأيها وتمنح استحسانها وبركاتها، يهمس لها أحد أخوتي "عندي مشروع كبير وجئت طالبا دعواتك»، فتنخرط معه في مشروعه وتصبح جزءاً منه، وتهاتفه يوميا للسؤال والاستفسار.

تسألون عن سر العمر المديد، هذا هو الجواب، فقد تشاركنا معها مرحلة شيخوختها عبر ادماجها في حياتنا بكل تفاصيلها كي لا تشعر بوطأة الفراغ ووحشة الشيخوخة، وكي يستمر حبل الترابط والود والرحمة بيننا وبينها دون انقطاع، وتلك كانت رؤية امي لنفسها وعلى امتداد مراحل عمرها، وقد كنا نحن أبناءها عناصر أساسية وفاعلة في تحقيق هذه الرؤية.

المعرفة، الخوف، والحب!

أحمد السعيد

قد يجد كل قارئ في أحيانٍ ما أحدهم يقول له: (اشغل نفسك بما هو أنفع). ويُقصد بالعمل النافع في فكرنا السائد الذي نمَّطته منظومة الإنتاج الرأسمالية: «كل عمل يجلب لك منفعة مادية». كنت ممسكاً بكتابي ومر علي أحد الزملاء فسألني: ما الذي يدفعك نحو القراءة؟ أو لماذا تحب القراءة؟ فأجبته: لتحقيق كينونتي كإنسان.

يحكى أن عبدالله بن عباس سمع أحدهم يتلو: "وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون. فقال: لا والله، بل ليعرفون». العبادة لا تتحقق من دون المعرفة أولاً، ولتعدد المعارف تتعدد طرق العبادة. كذلك سائر تداعيات الفعل الإنساني: الحب، الثورة، الولاء، العمل. لا يمكن لهذه الأفعال والمشاعر أن تسبق المعرفة، وإلا ستكون عبثاً. إنك لا يمكن أن تحقق كينونتك الإنسانية التي مُيِّزَتْ بالعقل من غير استخدامه لمعرفة الأشياء، واكتشاف حقائق العالم. والعقل مثل سائر أعضاء البدن إذا لم تستخدمه أصيب بالضعف، وسيستخدمه غيرك لتصييرك تبعا له. لا ينتقل الإنسان من المرحلة البهيمية إلى المرحلة الإنسانية من غير المعرفة. فصفة إنسان تبقى صفة اسمية لا تتعلق بكينونته.

في إحدى تفاسير قصة الخلق المتعارف عليها في الديانات السامية، يحكى أن الفاكهة المحرمة التي قطفها آدم كانت فاكهة المعرفة الكلية للأشياء، وأن تلك المعرفة لا يجب أن يشارك فيها أحد الرب، وبهذا حُكم على آدم وبنيه بالنزول من الحياة الباقية إلى الحياة الفانية ليعمل ويكد ويشقى، وحُكم عليه بأن يجهل أبدا ويخاف أبداً. فنجد أنه كلما حاول أن يعرف ويقوده فضوله نحو الشجرة تتم إخافته من قبل السلطة التي لا تريده أن يعرف، إما بالخوف من الله وغضبه، أو الخوف من العذاب الدنيوي –السلطة الدنيوية–. دائما ما كانت صورة الرب المخيف، قرينة بتفسير السلطات، سواء من كانوا يتولون سلطة دينية على الناس أو سُلطة دنيوية، وفي أسوأ الأحوال إذا اجتمعت السلطتين معاً عليهم؛ كما حدث في أوربا القرون الوسطى وغراراتها في تاريخ البشرية. فكان الخوف يستخدم كعدو للمعرفة رغبة في تصيير الإنسان شيئا بهيمياً، يتبع ولا يسأل، ويطيع بتسليم تام.

هناك حكاية رمزية تقول بأن حريقا أصاب إحدى الغابات، فتدافعت الحيوانات للنجاة بنفسها، إلا أن القدر شاء أن تموت الصيصان لأن الحريق كان أسرع من قدرتها على الركض، فلم يبقَ منها سوى ذكر وأنثى. لم تجد الأم تفسيرا للحريق الذي حدث، فأخبرت أبناءها الجدد أن الراعي كان غاضباً من أسلافهم لأنهم لم يكبروا بسرعة ليستخدمهم له. وعندما كبرت مجموعة وصارت دجاجات تسلطت على اخوتها تخيفهم من نوائب الدهر وشر الراعي، ولتتقي ذلك وتحفظ حياة الصيصان أمرت بتقديم قرابين من أملاكهم، وأحيانا من الصيصان أنفسهم. إلا أن الصيصان الفقيرة والمستضعفة قررت أن تثور، مرة على شكل نكران جذري لفكرة الراعي الذي استخدمته السلطات كوسيلة تجهيل وإخضاع، ومرة على شكل تغيير صورة الراعي من الغاضب المخيف إلى المحب والصديق.

إن الخوف لا يجتمع مع الحب أبداً. هكذا كانت مثلا ثورة التصوف على الأكليروس الديني. فلا يمكن أن تحب حتى والدك إذا كنت تخاف منه، سيكون خوفك منه هو الدافع وراء طاعته. هناك اتفاق في تاريخ الفلسفة على أن الأمر الأخلاقي الذي يقول لك: "افعل كذا ولا تفعل كذا" ينبع من داخل ذاتك بالذات، سواء من الفطرة حسب روسو، أو الضمير حسب دوركهايم، أو من العقل كما يؤكد كانط. فحسب توضيح كانط: الأمر الأخلاقي لا تبرره أي غاية أخرى (فهو يجب لأنه يجب. نقطة على السطر). فإذا كنتُ لا أسرق بمبرر أن المبلغ ليس مغريا، أو خوفاً من السجن، أو خوفاً من عقاب الله، فالامتثال هنا ليس أخلاقياً، لأنه لا يصدر عن العقل بل نتيجة انفعالات كـ: الخوف، الطمع، العجز، وغيرها. حين يقول كانط "استخدم عقلك" ذاك لأن العقل معطل فهو يحتاج إلى التهديد والوعيد والترغيب وإثارة الشهوة لكي يطيع، فهو لا يطيع حُباً إنما يطيع خوفا ورغبة.

إن ذلك منتشر في نمط تربيتنا للطفل الصغير: "إذا فعلت هذا الفعل الحسن سنشتري لك هدية، إذا فعلت هذا الفعل القبيح لن تذهب إلى الحديقة". لكنه ما إن يبلغ النضج العقلي تجده يفعل أفعالا حسنة لأنه يراها حسنة في تقييمه الذاتي لها، ويترك الأفعال القبيحة حين يستنتج ذاتياً أنها قبيحة. ولا يعني هذا ان هناك سناً محدداً للنضج، بل قد يحين الإنسان أجلُهُ وتبقى أفعاله مرتبطة بمتعلقات الرغبة والخوف.

تنبهتْ لذلك رابعة العدوية حين قالت: "أحبك لا أحبك للثواب ولكني أحبك للعقاب / وكل مآربي قد نلتَ منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب" إنها وصلت للمحبة الإلهية فاستوى عندها الثواب والعقاب، بل هي لا تكترث له وتفضل العقاب على الثواب إذا ما بدر من المحبوب، لأن كل ما هو منه جميل. وكان أبو يزيد البسطامي يقول: "جاءني سيل عشقه فأحرَقَ الماء دوني، فبقي الواحد حين لم يزل أحد». أي أنه لم يعد يخاف النار ولم يراها محرقة، ولم يعد يرى أي أحد او يهاب شيئاً لأن الله حباه عشقَه فبقي هو وحده أمام ناظريه.

فكان يقول ابن خضرويه: "رأيت رب العزة في منامي فقال لي: يا أحمد، كل الناس يطلبون مني، إلا أبا يزيد فإنه يطلبني". ولم يستسغ ملا صدرا فكرة العقاب الأبدي للإنسان نتيجة أفعال اقترفها في حياة مؤقته، فذلك لا يصدر من رب عادل رحيم. لكن آيات النار لا يمكن الإفلات من صراحتها في القرآن، خصوصا من رجل مثل ملا صدرا، فأخذ يفسر العقاب بكونه مؤقتاً ثم يصبح أهل النار من جنس النار فيكون نعيمهم بها وعذابهم في الخروج منها. وكما تقول إليف شافاك: إن الإنسان يرى الله على صورته، فإذا امتلأ القلب رحمة وشفقة على الناس رأى الله أشفق منه عليهم، وإذا امتلأ قلبه قسوة رأه جباراً عتيدا. أو كما اختصر الجنيد البغدادي الفكرة بقوله: "لون الماء لون إنائه".

ما نستنتجه إذاً أن السعادة تتحقق أولاً في الإنسان من خلال استقلاله الفكري والمعرفي فلا يكون تابعاً لأحد، وأن يتحرر ثانياً من الخوف، وأن يملأ ذاته ثالثاً بالحب والرحمة اتجاه النفس والخلق.

شرط الرأسمالية المُسيّسة اغراق الإنسان في التفاهة

الموت وما بعد يحاصران العالم (٣-٣)

عبدالله السعداوي

طرح دريدا مفاهيم مثل الاختلاف والتأجيل والإرجاء بدلاً من المفاهيم البنيوية المتعلقة بالثبات والاستقرار والتكرار اللانهائي للنمط، مؤكداً على وجود لا – نهائية، ولا– تحديد في موروث المعنى، إن المعنى اللغوي هو ظاهرة غير مستقرة في جميع الأوقات والسياقات ويظهر ذلك من خلال دراسة الخطابات التي توظف اللعب اللغوي للكلمات والتورية. هكذا تكتسب اللغة كما يقول دريدا طاقات لانهائية لتوليد المعاني الجديدة للإبداع، ويتلاشى المعنى المحدد والمستقر في اللحظة التي يتمّ فيها انتاج جديد.

ينتقد دريدا الفلسفة الغربية باعتقادها بامكانية حضور المعنى كاملاً ونهائياً لعقل المتكلم، وأن هذا المعنى ينتقل ليستقر فيه الخطاب وينتقل كما هو إلى المتلقي، وهذا ما يدعوه ب (ميتافيزيقيا الحضور)، ويذهب إلى انكار وجود نوعٍ من الإزاحة في المعنى الذي يفترض ان يكون حاضراً دائماً كما هو في ذهن المتكلم ،ومن ثم ينتقل إلى الخطاب كما هو أيضاً دون تغيير أو إزاحة – محض وهمٍ نميل إلى الأخذ به بتأثير الثقافة الإنسانية.

ذلك أن الاختلاف والتأخير دائماً ما يقع للمعنى ويعطل الحضور الكلي، وبذلك أصبح التأكيد على الاختلاف والتأجيل والمعنى غير القابل للتحديد والاكتمال داخل النظام من المبادئ الأساسية. وكان نيتشه يرى بأن أي ارتباط دنيوي – بجنس أو عرق أو أثنية أو تاريخ – ليس إلا سراباً أو بناءاً يراد الاعتقاد به بعد اقامته على نوع من أنواع الايمان المصمم لجعلنا معلقين عالياً بحبل المعنى الواهي فوق هوة الحقيقة غير المريحة، وقد كان مقتنعاً بأن هذه الأبنية كلها محكومة في أخر المطاف بالتنازع فيما بينها، ومحكومة بأن تسبب العنف أكثر من ما تحله.

وبذلك فتح الباب لفلسفة مابعد الحداثة التي أظهرت الفيلسوف دريدا التفكيكي الذي اعتمد التشكيك الجذري في دلالات النصوص مقوضاً تماماً فكرة استقرار المعنى. نظرة دقيقة للتفكيك توضح ان أي بنية سياسية، اقتصادية وغيرها تسن ويحافظ عليها بأفعال استبعادية بمعنى أنه أثناء خلق شيء ما ستستبعد لامحالة مالا يتفق معه. تصبح هذه البنى الاستثنائية قمعية. كما أن القمع يصبح أحد النتائج المترتبة عليه.

يصرّ دريدا على أن ما يتم طمسه وقمعه يعود مرة أخرى لزعزعة البناء مهما بدأ البناء في مأمن، ومن هنا يصدر الفيلسوف ريتشارد رورتي متأثراً بمقولات دريدا التفكيكية في طرح تصوره للنشاط التأويلي الذي يمارسه المتلقي على النصوص، فعلى العكس من مقولات الفيلسوف السيميائي أمبرتو ايكو المتعلقة بوجود ضوابط جمالية وتأويلية يفرضها النص على المؤول، يأخذ رورتي بالفلسفة التفكيكية والتي تقوم بتفكيك المعنى وتقول للمعنى المرجع. ويطل علينا المفكر (ايشلمان) ليقول لنا ان السنوات الخمس عشرة الأخيرة شهد نشوء حالة في العلوم الانسانية تسمى (مابعد النظرية) ومن هنا ينطلق ليعلن ايشلمان (بموت مابعد الحداثة) ويبدأ بصياغة مصطلح (مابعد مابعد الحداثة) فكل النظريات مابعد البنيوية التي ظهرت في مرحلة مابعد الاستعمار لم تستطع أن تواكب الحداثة المتغيرة والتي يجري الاشارة لها بلفظ العولمة. في كتاب ايشلمان: (نهاية مابعد الحداثة)

هناك جملة تغيرات طرأت على الأدب والعمارة والسينما والفن والسياسة توضح مما لا يدع مجالاً للشك أننا غادرنا حقبة مابعد الحداثة، ويطلق على هذا العصر الجديد عصر (الأدائية) حيث تأخذ نماذج الفلسفة والفن والسينما والأدب منحنى سمو وتعالي يتجاوز الواقع المادي ويعود بالفلسفة نحو الواحدية بعيداً عن التضخم والتشظي الكامن في نموذج مابعد الحداثة.

وفي نفس الطريق يمشي استاذ الأدب آلان كيربي في مقاله المهم (مابعد موت مابعد الحداثة)، قائلاً: (إن مابعد الحداثة ماتت وتم دفنها، وأتى في مكانها نموذج جديد للسلطة وللمعرفة تشكل تحت ضغط تكنولوجيا جديدة وقوى اجتماعية معاصرة)

يتحدث في مقاله المثير عن نهاية مابعد الحداثة وظهور تطبيقات أدبية وفنية وسياسية تأسست في واقع مغاير وعلى نماذج فكرية مختلفة، ويطالب القراء أن يلقوا نظرة على سوق المنتجات الثقافية، أين الانتاج الثقافي مابعد الحداثي؟ هل لا زالت أي من نظريات دريدا، فوكو، جان بودريار تشغل الساحة الفكرية الآن؟ كل هذه النظريات توقفت ولا تشغل إلا الأكاديميين، كذلك تخلى منتجوا المواد الثقافية المقروءة، المرئية والمسموعة عن انتاج مواد تتعلق بما بعد الحداثة. ويرى كيربي ان الشعور بلا جدوى النظريات أدى إلى موتها.

لقد أصبحت مسرحية مثل في (انتظار جودو) أو رواية (1984) لأورويل قديمة جداً بل وظهرت في واقع مغاير وسط نمط ثقافي مختلف. أما الآن مع ما بعد مابعد الحداثة فإنها تدفع القارئ لاتخاذ مواقف متعالية على الواقع المادي، بحيث يعتقد القارئ أن عليه الوصول لدرجة من البطولة والتعالي والتجاوز يهزم بها الواقع المادي المكبل لروحه. تقدم هذه الاستراتيجية السردية التعالي أو تجاوز الواقع المادي على انه السبيل للوصول للحقيقة، على عكس التشظي الذي يسود عالم مابعد الحداثة والذي اتفق فيه الجميع على ان لا حقيقة اساساً بل محض تأويلات متأثرة بالسياق التاريخي والمحلي المصاحب لها.

يقول آلان كيربي: إن «مابعد مابعد الحداثة» على عكس «مابعد الحداثة» تضفي على المتلقي، وليس الكاتب أهمية، وكأنه شارك في كتابه أو هو من كتب العمل برمته. يرى المتفاءلون أن هذه هي (دمقرطة الثقافة)، لكن المتشائمين يرون أنها دليل على أن المنتجات الثقافية المعاصرة تافهة وضحلة ومن هنا يقول كيربي: (أعتقد أن ما يحدث أكثر من مجرد تغيير في النمط الثقافي، مفهومنا للسلطة، للمعرفة، للأنا، للواقع وللزمن قد تغير فجأة وإلى الأبد؛ هناك فجوة بين المحاضرين والطلبة، تلك الفجوة التي ظهرت في أواخر 1960 لكن الأسباب مختلفة. فالتحول من الحداثة إلى مابعد الحداثة لم ينبع من اعادة صياغة عميقة للعلاقة بين العرض والطلب في الثقافة، بل حدث بسبب لهجة خطابية مبالغ فيها، لكن في أواخر التسعينات وأوائل الألفية الجديدة، أعادت التكنولوجيا الحديثة هيكلة طبيعة الكاتب والقارئ والنص والعلاقة بينهم بعنف وإلى الأبد)

تُصوّر الثقافة المعاصرة مابعد الحداثة في مشهد يجلس فيه الفرد عاجزاً، يطرح أسئلة عن الحقيقة كأشكاليات، لذلك ارتبط الفرد ارتباطاً وثيقاً بشاشات السينما والتلفزيون. ظهر بعد ذلك نوع من الحداثة الزائفة، حيث أصبحت مشاركة المتلقي جزءاً من الناتج الثقافي، يظهر ذلك في كل برنامج تلفزيوني أو إذاعي، وفي النصوص التي توجهها وتحرك مسارها مشاركات المشاهد أو المستمع – تكون فيه الاتصالات الواردة للبرامج حقيقية برعاية الأخ الأكبر لذلك أسميها (حداثة زائفة)، فالمتصل ليس فعلاً المشاهد أو المستمع المستهدف المطلوب رأيه. تشمل الحداثة الزائفة كذلك ألعاب الكومبيوتر التي تضع الفرد في سياق خلق المحتوى الثقافي، ضمن حدود مرسومة مسبقاً، فيتعدد محتوى اللعبة بتعدد شخصيات اللاعبين.

أكثر الظواهر الثقافية الدالة على الحداثة الزائفة هو (الانترنت) فكرة أن الفرد بمجرد نقر الفأرة يتحرك بين عدد لانهائي من الصفحات، يخلق فضاء لمنتجات ثقافية وجدت لتوها ولن توجد مرة أخرى. ينخرط بعدها الفرد بشكل كثيف في عمليات ثقافية تعطيه احساساً زائفاً بأنه يتحكم ويدير ويخلق بيئته الثقافية الخاصة بمنتجاتها فصفحات الانترنت ليست مؤلفة، بمعنى أن لا أحد يهتم من كتبها. على الأغلب تعمل الصفحات اعتماداً على اضافات العوام مثل ويكيبيديا، أو عن طريق ردود الفعل في التعليقات مثل مواقع التواصل، ما يتميز به الانترنت بشكل جوهري هو ان أي شخص يستطيع اضافة أي صفحة (كالمدونات) في مابعد الحداثة، الشخص يقرأ، يستمع، يشاهد كالمعتاد. لكن في الحداثة الزائفة الشخص يتصل، ينقر، يطبع، يتصفح، يختار. هنا

تكمن الفجوة الجيلية، والتي تفرق بشدة بين الناس الذين ولدوا قبل 1980 وبعده.

يرى من ولدوا بعد 1980 انهم وأقرانهم أحرار مستقلين، مبتكرين، فعالين، مسيطرين صوتهم مميز عالي ومسموع. مابعد الحداثة وماقبلها على العكس من ذلك تبدو نخبوية مملة، كمشهد متكرر يضطهدهم ويسد الأفق أمامهم، أولئك الذين ولدوا قبل 1980 يرون، المقصود هنا ليس الناس، المحتوى والمشاهد والوسائل التي تتسم بالعنف، بالإباحية، بغير الواقعية، مبتذلة، مملة استهلاكية، بلا معنى وبلهاء ويكون عصر ماقبل الحداثة الزائفة بالنسبة لهم هو العصر الذهبي للذكاء، والإبداع، والتمرد، والأصالة. ومن هنا جاء أسم (الحداثة الزائفة) الذي ينطوي ضمنياً على توتر بين التطور الذي تقدمه التكنولوجيا، وتفاهة وجهل محتواها في نفس الوقت.

إنما يحدث ليس مجرد تغيير في نمط الثقافي مابعد الحداثي بل بالأحرى ولادة مفاهيم جديدة للسلطة، للمعرفة، للأنا، للواقع، للزمن، مفاهيم جديدة تعيد تعريف العلاقة بين القارئ والنص بعنف وللأبد، ففي حين أن بعد الحداثة كانت تطرح اشكاليات كالواقع والحقيقة كأسئلة استفهامية ووجودية، تتناول الحداثة الزائفة الحقيقة على انها (أنا)، أنا المتعالي المتجاوز للواقع المادي، (أنا) الخالق للحدث بالتفاعل الحي مع الأحداث وتصويرها بالكاميرات ونشرها في مقاطع الانترنت، أنا من يخلق الحقيقة نتيجة لذلك، يحل الجهل والتعصب الناجم عن تضخم الأنا محل الروح الساخرة الناتجة عن القلق الوجودي والعدمية المصاحبة لما بعد الحداثة.

الآن تفتح بوابة مابعد الإنسانية وهذا المصطلح تم تداوله على نحو متزايد من قبل عديد من المفكرين والفلاسفة. اعتمد الفيلسوف بيتر سلوتريديك عام 1999 مصطلح مابعد الإنسانية قاصداً أننا ننتقل من (العابر للانسانية (الترانس هيومانيسم) إلى (البُست هيومانيسم)، وهو زمن سيختفي فيه الإنسان الذي عرفناه واحتفينا به طيلة آلاف السنين. سيصبح الإنسان من الغابرين من تلك الكائنات التي كانت ثم زالت. لم يبقَ من الإنسانية التي عرفتها شيئاً مذكوراً. ستصبح القيم التي قامت عليها حياتها هباءً منثوراً، وتنهار المبادئ التي بنى الإنسان عليها تاريخه في الأرض ومعارفنا ستذروها رياح هوجاء لا تبقي ولا تذر. وكثير من المفكرين يرون بأنها النهاية وحقائق العلوم تقول بذلك وتؤكدها يوماً بعد يوم: التكنولوجيا الاصطناعية، تكنولوجيا الضئيل، جامعة التمايز، طب الاصلاح التقليدي، النانو تكنولوجيا، جامعة الفوارق، طب الإضافة، الإنسان الآلي، العقل الافتراضي، علوم الاعصاب.

فها نحن ذاهبون إلى أزمان سيكون فيها اللامنتظر، المفاجئ من القواعد الاساسية التي تحكم العالم ونرى الإنسان النصف آلي والنصف حيواني والنصف بيولوجي شبه جاهز. فالعبور هو المقدمة للوصول إلى القطيعة. يقرر كروزويل دون أي شك أنه سيصار إلى تدعيم الإنسان برقاقات تكنولوجية إضافة إلى قطع غيار أخرى، التي تستهدف تجاوز الحدود الطبيعية التي تحكم الإنسان، لتجاوز قدراته البيولوجية والعقلية بواسطة تكنولوجيا متقدمة، وخصوصاً في حقل الذكاء الاصطناعي وإيجاد المبررات الفلسفية الداعمة في هذا التجاوز وتشريعه عقلياً وأخلاقياً والتأهيل المسبق بقبوله عبر مختلف الوسائط الفنية والثقافية والتربوية.

وما بعد الإنسانية تحتوي على سبع تعريفات على الأقل، وفقاً للفيلسوف فرانشيسكا فيرناندو معادية للانسانية. أي نظرية تنتقد الإنسانية التقليدية والأفكار التقليدية حول الإنسانية والظروف الإنسانية. ثقافة مابعد الإنسانية فرع من نظرية ثقافية ناقدة للافتراضات التأسيسية للإنسانية وإرثها الذي يفحص ويشكك في المفاهيم التاريخية الإنسانية والطبيعة الإنسانية.

يقترح الفيلسوف تيدساتزكي وجود نوعين من «ما بعد الإنسانية» من النوع الفلسفي، وهناك نوع ثالث من «ما بعد الانسانية» يرعاها الفيلسوف هيرمان دوويورد على الرغم من أنه لم يصفها بأنها (مابعد الإنسانية) إلا انه قام بنقد جوهري وانتقائي كبير للإنسانية، ثم قام ببناء فلسفة لا تفترض فكراً انسانياً ولا سكولاستياً أو يونانياً.

وقد قال ايهاب حسن: قد تنتهي النزعة الإنسانية، لأن الانسانية تحوّل نفسها إلى شيء يجب على المرء أن يدعوه بلا حيلة بعد البشرية. ومن المنظرين الذين يكملون ويتبادلون جوديث بتلر، وعلماء سيبرونيون مثل غريغوري بيتسون، وارن ماكولوتش، ونوربرت وينر، وبرونولاتور، وكاري وولف، والين غراهام، وناترين كايلز، دونا هاراواي، بيتر سلوتريديك، وستيفان لورنز سورجنر، وهناك الفيلسوف روبرت بييريل الذي كتب عن حالة مابعد البشرية والتي غالباً ما يتم استبدالها بما بعد الانسانية.

آمن الفلاسفة السياسيون في هذا العصر أمثال بينجامين فرانكلين، ووليام جودوين، ونيك بوستروم الفيلسوف السويدي أن عدم المساواة والظلم وكذلك الموت يمكن القضاء عليه بواسطة التقدم العلمي، ولذلك كان ينظر إلى العلوم على انها امتداد للعقل، وأنها واحدة من أبرز المدارس الفكرية وتطبيقاته. وغالبا ما يستشهد بملحمة جلجامش غالباً على أنها أول الأعمال الأدبية الناجية، والتي تحتوي على ما قد يطلق عليه أول رواية مكتوبة، لشخص يسعى إلى تدخل مؤيد لما بعد الإنسانية، وهو بطل رواية ملك مدينة «أوروك» الذي ظلّ يبحث عن الخلود كما أنه غالباً ما يستشهد بالبحث عن الخلود باعتباره واحداً من غايات حركة مابعد الانسانية.

ومن بعيد عبر مجاهل القرون نسمع صوت المرأة وهي تقول: إلى أين تمضي يا جلجامش؟. إنّ الآلة كتبت الموت على الإنسان واحتفظت بالخلود، سيطرت كلمة الموت على الفلسفة ثم الأدب والفن: موت المؤلف، موت الشخصية، موت الناقد، وظهر مصطلح مابعد الدراما، مابعد التمثيل (في السياسة) مابعد فورد في (الاقتصاد)، مابعد الهوية (في علم الاجتماع) وكل هذا بسبب العولمة وازدياد موجات الهجرة ونهاية الدول القومية، فضلاً عن الثورة في تكنولوجيا الاتصالات التي كان لها أكبر الأثر في تفتيت ما هو جمعي، وفصل الفرد عن محيطه الطبقي والاجتماعي.

سلطة التفاهة (الميديوقراطية) هو كتاب للفيلسوف الكندي (آلان دونو)، والذي يرصد فيه التفاهة كنسق متغلغل ضمن تفاصيل الأوضاع السياسية والاجتماعية، تصنعه وتدعمه قوى عولمية وامبراطورية عابرة للدول والمجتمعات، وبخاصة الرأسمالية وقواها المتوحشة إذ تحكم أسواقها وصراعاتها بعرض التفاهات كبضائع رائجة وغدت هي المادة الراكدة على المقاهي ومنصات الاعلام وعبر البورصات وأقبية السياسة الدولية. ورغم ذلك لا يعد الأمر بهذه السذاجة المريحة لأن عبارة نظام التفاهة تفترض وجود إرادة تفاهة، وليس هذا منطقياً ولا سيما بالنسبة للجانب الأخلاقي، فلا يوجد هناك من يستطيع الانتهاك العام لقيم قد تلحق به الأذى المعنوي أيضاً يحتاج النظام إذا افترضنا اقترانه بالتفاهة وعياً مفارقاً بما يؤديه من نتائج وآثار وعلى المنوال ذاته يحكم النظام سلوك الأفراد والجماعات استناداً إلى انه لا يجري نظام بلا سلطة.

بالفعل يرى دونو أن البلاهة غدت تقنية من تقنيات الأنظمة السياسية، وهي لا تأتي دون أقطاب يحملون منظومات وأفكاراً وخططاً قابلة للتطبيق الفارق، إنه إذا كان البلهاء تافهين حتى النخاع، فالسلطة تعطيهم نظاماً خاصاً لإضفاء الجدية والمشروعية على أفعالهم، أي أن السلطة مصفاة لا تستثني البلهاء، بل تعطيهم قدرات صارمة وفاعلة على المستوى الجمعي، فالسلطة لا تخدع فحسب، إنما تشرعن الخداع طوال الوقت مادامت هي التي تغلف وجوده. إنها صدفة لامعة تحوي داخلها برقات وطحالب التفاهة التي تتناسل بجوف السياسات المهيمنة.

كل سياسة من هذا الصنف هي الحاضنة التي توفر شروطاً لنمو الطحالب التافهة. وللدقة فإن السلطة قد تفرز مايخادع جمهورها العريض إلا ان التافهين يتعاملون معها سياسياً بشكل متواطئ وهنا يأتي مفهوم الكتلة من التفاهة المهيمنة الآخذة في الانتشار.

الحاكم التافه يتعامل مع السياسة بمنطق الكتلة لدرجة أن نظامه السياسي يسير وفقاً لفيزياء خاصة، يحرص على اشاعة روح البلاهة عن طريق شبكة كبيرة من الموالين والأنصار والحلفاء وأصحاب المصالح شريطة أن يكونوا على ذات المستوى من التفاهة، وأن يكون التسابق لا لصالح الدولة إنما لترسيخ السلطة وسطوتها بشكل أفقي عام، بواسطة العلاقات بين التافهين تتكون شبكة التفاهة تلتهم النظام السياسي، وتستبقه معبرة عن مصالحها. التافهون كالجراد البري لدى الأنظمة السياسية العربية، ينتشرون في كل مكان، يتراقصون على كافة المسارح، يلتصقون بالكراسي التصاق الديكتاتور بحذاء السلطة وزيّها الرسمي. لقد بلغ التافهون المدى في التعليم والثقافة والسياسة والفن والإعلام والواقع الافتراضي، أصبح الواقع مغطى بكمٍّ مهول من لعاب التافهين. فالرأسمالية لا ترتبط بحروب لنهب ثروات العالمية والسيطرة على الشعوب ومركزية السوق والاستهلاك، بل لن يتم كل ذلك إلا إذا جعلت الانسان نفسه أحد السلع التافهة. شرط الرأسمالية المسيسة أن تغرق الانسان في أوحال التفاهة. إن السوق الحقيقي في السياسة هي سوق التفاهات.

لا وعي المدينة

إنْ كنا سنجد لا وعي الإنسان في أحلامه وفلتات لسانه، والتّداعي الحُرّ لذكرياته وتهويماته أثناء الاسترخاء على أريكة المحلّل النفسي. فأين يمكنُ أن نجدَ لا وعي المدينة، الذي هو بطريقةٍ ما، يشكّلها ويدفعُ سلوكها رغم ندرة حضوره الظّاهر في الحياة اليوميّة؟.

أحمد رضي

إن الإنسانَ ليلجأ إلى جعل المكان مرآةً لما في نفسه من صراعات شديدة التجريد. لأنّه سيجدُ في الصيغ المكانيّة مجازًا ووسيلةً للتعبير. فالبيتُ النموذجي كما حدّده «غاستون باشلار» يمكن أن نجدَ فيه القبو والعليّة. حيثُ يصبحُ فيه القبو بالنسبة للإنسان في أحلام يقظته بمثابة اللاوعي من حيث ارتباطه بالعالم السفليّ المُظلم بكائناته الزّاحفة البطيئة الغامضة، وتكونُ العليّة فيه بمثابة الأنا الأعلى لارتباطها بالسقف والسماء. وقد استعارَ باشلار من المحلّل النفسي «كارل غوستاف يونغ» مثالاً عمّا يعنيه هروب الإنسان الحديث من عقده النفسيّة، أي هروبه من مواجهة لا وعيه: «مثلَ رجل سمعَ صوتًا مريبًا في القبو فأسرعَ إلى العليّة، وحينَ لم يجد لصوصًا فيها قدّر أنّ ما سمعهُ مجرّد وهم. بينما في حقيقة الأمر، لم يجرؤ هذا الرجل على المجازفة بدخول القبو». كي ما يوضّح فكرته عن اللاوعي، يستعمل «يونغ» هنا مجازًا مكانيًا. فليس القبو الواقعيُّ سوى امتداد لأحلام يقظتنا عنه، والتي هي لم تأتِ اعتباطًا، وإنما بتركيب من تعامل الإنسانِ برغباته ومخاوفه مع القبو الواقعي الذي يحملُ في حقيقته ما يحفّز تلك المخاوف والرغبات.

ولو عُدنا إلى تجليات هذا المفهوم في فيلم «الأم» في قراءة أخرى، إذ يسرد الفيلم التاريخ الديني بطريقة رمزيّة وفق بيئة غربيّة معاصرة على طريقة رواية «أولاد حارتنا»، التي رمّزت التاريخ الديني ضمن البيئة المصريّة، بل من غير المعقول أن لا يكون مخرج الفيلم أو مؤلفه قد أطلع على تلك الرواية، لكنّ بينهما اختلافًا هامًا، فرواية نجيب محفوظ، محورها الرئيسي هو العدل والبحث عن الفردوس المفقود في عزبة الأب، بينما المحور الهام في الفيلم هو «العنف».. قطرات الدم البسيطة كافية لأن تخترق أرضية الغرفة وصولاً إلى قبو البيت الذي يرمزإلى اللاوعي حيث عنف الطبيعة. هذا الدم غير قابل للتنظيف، وكل ما فعلته الممثلة «جينفر» التي ترمز للطبيعة الأم أن غطت بقعة الدّم بسجادة رقيقة. الفيلم يتخذ من «الأم» زاوية للنظر، بينما يمثل الشاعر، الممثل خافيير»الرب» الذي اتخذ من الغرفة العلويّة مقرًا لابداع نصوصه، تاركًا الجميع على هواه، فيما تقوم زوجته بكل الأعباء في تجديد البيت وتحمّل الضيوف المزعجين ـ أيْ البشر.

وإن كان اللاوعيُّ عند الإنسان يتشكّل من مكبوتاته في الطفولة المبكّرة وغرائزه المقموعة، سيكونُ في المدينة أيضًا تجسيدٌ لكلّ هذا. وستعملُ المدينةُ الحديثةُ أيضًا، مثل ذلك الرجل في مثال «يونغ»، على الهرب من لا وعيها بالذهاب إلى العليّة. إذ ستقلّ فيها الأماكن المُظْلمة بفعل الإنارة، خصوصًا مع الانتقال من الإنارة بالمشاعل، إلى فوانيس الغاز، وصولاً إلى الكهرباء. الإنارةُ هنا تزدادُ حتّى تصلَ إلى كلّ الأماكن والأزقّة الضيقة.

وقد يبدو غريبًا أنْ أعتبرَ هذه الإنـارة هروبًا. فبالطبع أدركُ ضرورتها العمليّة، بل وأثرها الاجتماعي الإيجابي، وأساس نشأتها الاقتصاديّة حيثُ أنّ أوّل ما تمّ إنارتهُ في مدينة باريس بفوانيس الغاز كانت الشوارعُ العريضةُ ذات المتاجر الكبيرة، وذلك لإطالة أمَد التسوّق.

أدركُ هذا، ولكنّ هذه الإنارة تاتي ضمن سياق أشمل في المدينة وهي تنمو مبتعدةً عن الطبيعة. فهل الليلُ الذي نعيشهُ الآن هو الليلُ الذي عاشهُ أجدادنا؟ إنّ ليلَ المدينة لا يثيرُ هواجس ميتافيزيقيّة كما كان يفعلُ ليلُ القرية القديم المليء بالألغاز والخرافات التي تتسلّل من الهدوء المُطبق عبر أصوات الحشرات، إلى مُخيّلة المعتكف في منزله. وإن كان من شيء سيثيرهُ ليلُ المدينة فهو الرّغباتُ التي تشعُّ من نيون يافطات الإعلانات على البنايات، أو المخاوف من غريبٍ مجهولٍ عندما نتمشى في ساعة متأخرة في أماكن قليلة الروّاد.

إنّ ارتباطَ فلسفة التنوير بباريس، وبعض المدن الأوروبيّة ترافقَ أيضًا مع الإنارة في الشوارع، في التباس بين المعنيين. حين قطعتْ تلك الفلسفة العلاقةَ بين ماضيها في القرون الوسطى، والتي تُسمّى مجازًا بالقرون المظلمة، هاربةً إلى «عليّة» العقل كي ما تُخضع ضمن منطقها كلّ ما تعتبرهُ مُظلمًا وغامضًا وبدائيًا. بدءًا من ماضي القرون الوسطى الذي سيتحوّل إلى مجرّد مادة في المتحف حينَ تمّ إنشاؤه مع ولادة الدول الحديثة في الغرب، وليس انتهاءً باستعمار الشعوب في أسيا وأفريقا والأمريكيتين والتحكّم بمقدراتها. تلك الشعوب التي تمثّل لا وعي المدينة الحديثة. ولذا سيكون من اللازم إخضاعُها ضمن المنطق الغربي.

أدركُ أنّ للأمر دوافعَ اقتصاديّة، ولكنّ الشّكل الذي كان يتّخذهُ تبريرُ الاستعمار هو ذريعةُ نشر قيم التحضّر. حيثُ لن يُسمحَ لتلك الشعوب إلا أن تكونَ مُقلّدة للمستعمر أو أن تعيش ضمن تراث مُقلّم لهُ طقوسه الفلكوريّة التي تُدهش الغربيين، ولكن بعد نزع قيمتهِ الحقيقيّة. أليس هذا ما يحدثُ حين تحاول دولةٌ ناميّة، في الوقتِ الحاضر، أن تنشر موادَ إعلاميّة عن السياحة في بلدها. حيث ستقدّم لهم صورةَ الحداثة التي تقلّد الغرب، لكنّها ستقدّم التراثَ أيضًا بعد أن يتمّ تغطيتهُ بالشمع كي ما يصبحَ مادّة للفرجة يستطيعُ الآخر أن يتفاعل معها، أي بعد إضفاء الطابع الجماليّ عليه، ونزع أثره الاجتماعي والنفسي والسياسي. هذا ما أعنيه بالهروب من قبو المدينة إلى عليّتها. فحين يذهبُ السّائحُ إلى مدينة، لن يستطيعَ فهمها من خلال عروض الأزياء والرقصات، بقدر ما سيفهمها بذهابه إلى حيثُ لا زالتْ تلكَ الثقافة التي أنتجتها فاعلةً في بيئتها الحقيقيّة، والتي لن تكونَ مقدّمةً في بروشورات السياحة. إن رؤيةَ شجرة قد تعطينا تصورًا عن الغابة، لكنّها لن تمنحنا معنى العيش في غابة.

إن الابتعادَ عن الطبيعة، ذهنيًا وواقعيًا، سيدفع الإنسانَ المتحضّر لاستدعائها أحيانًا إلى بيئته، ولكن في شكل حديثٍ مثل هندسة الحدائق. التي ستكونُ الغايةُ منها هي معايشةُ الطبيعة ولكن بعدَ نزع خاصيّتها الغامضة أو المثيرة للقلق لتكوّن مرتّبةً ومفهومة، خصوصًا حين يكونُ جُهد الإنسان واضحًا في هندستها.

كما أنّ طفولة المدينة، التي هي لا وعيها أيضًا، يمكنُ أن نراها في ريفها أو ضواحيها البائسة التي لم تلتحقَ كثيرًا بالتحديث، والتي قد تستبعدُ من الحضورِ الإعلامي في مدينة نامية لتنتشر صور واجهات

المباني الفخمة. أو يتمُّ تأطيرهُ في السياحّة ليصبح غير حقيقيّ، تمامًا مثل دخول نفق الرعب في مدينة الملاهي. بما يمثّله من تجربةً زائفةً تهدف إلى الإثارة عبر استفزاز المخاوف، وليس عبر مواجهتها في الحقيقة. هكذا تصبحُ زيـارةُ بعض الاماكن الشعبيّة المقترحة من وزارات السياحة. أو الذهاب في رحلة تخييم في الصحراء، أو القيام بجولة لرؤية وحيد القرن في أفريقيا.

إن أي زيارة إلى مدينة، لن يكتمل فهمنا لها إن لم نذهب مناطقها الخلفيّة، أي إلى مكبوتاتها. كما أنّ غرائز المدينة سنجدها في الطبيعة التي شُيّدت فيها. أهي صحراءٌ أم غاباتٌ أم جبال. وقد تتمثّل المكبوتاتُ في الضواحي الفقيرة ذات التوترات الاجتماعيّة، والأزقّة الخلفيّة قليلة المارّة، والسجون، ومستشفيات المجانين.

فالحياةُ ما قبل المدنيّة، لم تكن تحدث فيها مثل التمايزات الحادّة بين العاقل والمجنون، الغني والفقير، الوجيه والشّقي. فجميعهم كانوا يعيشون ضمن فضاء واحد. وكلّما تمّدن المجتمع، كلّما أقامَ مثل هذه التمايزاتَ الحادّة لفصل التفاعل الاجتماعي. حيث لن يروا بعضهم بعضًا إلا من التلصص من حلال زجاج التلفاز والهاتف.

ولذا سنجدُ أنّ نشوء أوّل «مستشفى للمجانين» في البحرين 1932م، كان قد سبقهُ بناء مؤسسات الدولة الحديثة. حيثُ كان تابعًا أول الأمر إلى بلديّة المنامة التي تمّ إنشاؤها في عام 1920م. فمنذ نشوء بلديّة المنامة سيتمُّ وضع عدّة تمايزات، من هو العاقل والمجنون، من هو البحريني وغير البحريني من خلال جوازات السفر بدءًا من عام 1937م. وسنجد في هذه الفترة، تحديدُ الأراضي، أماكن المنتزهات والحدائق، حتى تمّ انشاء حديثة للحيوان في منامة الخمسينات.

إن هذا التحديد من شروط المدنيّة، وأصل نشأتها، ولكنّ الثمن الذي يدفعهُ الإنسانُ ضريبةَ ذلك هو في ابتعاده عن اللاوعي، لكنّه سيتخذ أشكال جديدة من خلال الهروب.

فالإنسانُ البدائيُ أقربَ لأن يعيش حياة اللاوعي، كما وضّح فرويد وسمّاه طفولة العقل البشري، ولذلك يلجأ ذلك الإنسانُ إلى ابتكار الخرافات والماورائيّات، عبادة الأسلاف، الطوطميّة وما إلى ذلك. وهنا لن يشكّ أي دارس لعلم النفس بأن ذاتَ هذه العقليّة موجودة في المدن الحديثة، ولكنّها تبدو بمظاهر عقليّة. ولا أعني بذلك وجودها في هذا الفرد أو ذاك وحسب، وإنما هي موجودة في الأساطير التي ترويها المدن عن نفسها، وتنتج بها أشكالاً مختلفة من التعابير الطقوسيّة. فحين اختفى عصر الرقص الجماعيّ الطقوسي، حلّت محلّها «حفلات الروك آند رول»، وما إلى ذلك مما يمكن تتبّعه. وفي حين كان البدائيُّ يعيشُ متناغمًا مع الطبيعة، حيث لا فصل بينه وبين الأشياء خارجه، والذي نسميّه نحن لا وعيًا، ومبتكرًا لهُ رموزه التي تشكّل له لغةً في فهم العالم. لا زالت المجتمعاتُ الحديثةُ تعيشُ مطمئنّة بوهم عقلانيّتها. والتي سرعان ما تثبتُ هشاشتها حينَ يشتدُّ صراعُ الجماعات، أو في حين صعود نزعات فاشيّة.

كان البدائيُّ ينتجُ فنًّا يستطيعُ من خلاله أن يتطهّر نفسيًّا، وأن يشعر بوجوده يتحّقق من جديد عبر تلك الطقوس فيما غدى الفنُّ الحديثُ يهدف إلى التسلية والإثـارة. وهذا ما يعنيه الهروبُ إلى عليّة العقل. لأنّ الفصل بينَ ما هو وعي أو لا وعي، لم يكن ليوجد لولا تحقّق الوعي الذي هو أرفعُ من العقل الأداتي. ولذا سنجدُ أن المدنيّة الحديثة، كلما ابتعدتْ عن تحقيق الوعي، نحو العقل الأداتي. سترتدُ، أو ترتدُّ جموعٌ غفيرةٌ منها، نحو أفكار روحانيّة قديمة ترتدي لبوسًا حديثًا. أليس في هذا معنى انتشار كتب شعبيّة مثل كتاب «السر» او انتشار الصوفيّة أو ألروحانيّة البوذية في المدن الغربيّة مع العولمة الرأسمالية، مثلما انتشر قبل ذلكَ التيّار الرومانسيّ مع الثورة الصناعيّة في القرن الثامن عشر.

ليس هذا دعوةٌ رومانسيّة للعودة إلى البدائيّة وإنما من أجل تكتشف المدينةُ لا وعيها من خلال فهمه ومواجهته، هو في دخول قبو المدينة (الرمزي)، وليس في هدمه أو اخضاعه أو وضع الإنارة الاصطناعيّة فيه حتى لتنتفي عنه صفة القبو. إن القبو الذي نلغي عنه صفة القبو، لن يختفي من وعينا تمامًا، وإنما ستبت بدلاً عنّه أقبيةٌ أخرى. أفلا تشكّل الحديقةُ الخلفيّة في منزلٍ أمريكي خالٍ من القبو. ما يجعلها تشبهُ فكرة القبو؟. إن بحثنا المستمّر عن تنوير الخارج ووضع الطبيعة تحت المجهر، لن يلغي الظلمة في النفس البشريّة، ولن يلغي المجهريات التي تعيش في ذواتنا. إنّه هروبٌ للأمام.

ما لم تستطع المدينةُ أن تواجه خوفها المتجذّر من الموت، كما فعل جلجامش ببحثه عن زهرة الخلود، وكما تفعل المجتمعاتُ الحديثة بمسح أي أثر للشيخوخة عبر عمليات التجميل. حينَ لا تستطيع تقبّل فكرة الموت. فإن القبو سيظلّ موجودًا دائمًا. هذا الذي تحاولُ المدينة إبعادَه عن مجال وعيها. وهنا ستنتج المدينةُ أشياءَ عظيمة كي تمنحها صفة الخلود، لكنّ هذا الخلود سيُبْنى على الجماجم.

من كتاب يصدر حديثًا: "المدينة والمدنيّة".

المفريد يباغتنا بالرحيل

غزال صغير في أزقة المحرّق

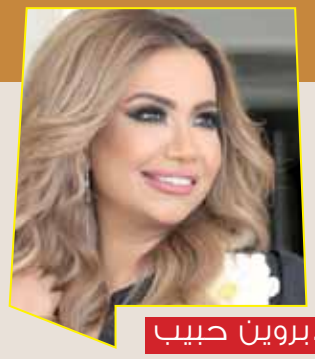

د.بروين حبيب

صبيحة يوم عيد مولده في الرّابع من نوفمبر/تشرين الثاني الجاري، ردّ على بعض أصدقائه الذين اتصلوا به مهنئين، متمنين له طول العمر والصحة والعافية. كان صوته متعبا، لكنّه ردّ، وقد كتب أحدهم أنهما تحدثا عن مشاريع سفر، كما ورد في في صفحة طارق البحّار «هل سنسافر معا إلى مهرجان القاهرة والعين، أم سنؤجل بسبب كورونا؟».

بالنسبة لمريض «سكلر» عاش حياته كلها جنبا إلى جنب مع المرض، لم يكن الخوف من الموت واردًا لديه، وإلاّ كان أجّل كل مشاريع حياته، ولَم ينجز منها شيئا.. كل أمراضه مجتمعة لم تهزمه، ظلّ باسطا يديه وقلبه بالعطاءات السخية، إلى أن غادرنا في السادس من نوفمبر 2020 أي بعد يومين تماما من ذكرى مولده.

باكرا رحل هذا «الفريد» تاركا خلفه نتاجا ثريا، يحتار الأصحّاء كيف أنجزها ومتى، ومع هذا فقد أنجز الكثير في خلال حياته القصيرة هذه. كاتب وسيناريست ومنتج سينمائي، ورجل رقيق وشهم، وإنسان جدا، يا الله كم هو إنسان، ودعوني أبسّط لكم حجم خسارتنا التي لا تعوّض في فقيدنا النبيل، للذين لا يعرفون فريد عن قرب، أو الذين لم يسمعوا باسمه قبل اليوم. فبعض العظماء يولدون لحظة وفاتهم مولدا أبديا، وفريد منهم. لكن هل يمكن تلخيص فاجعتنا؟ لقد جعلنا نعتقد على مدى سنوات أن الموت صديقه، فهو قريب منه، ولكنه لا يريد أذيّته. صدّقنا أنه قد يشارف على نهايته ويعود، وأنّه سيخرج من المستشفى بسيناريو جديد أو نص روائي، أو نصوص تحكي تجربته الخارقة وهو يقفز بين عتبات الموت مثل لاعب سيرك محترف. هذا الرجل الطيب بالوراثة، الخفيف الظلّ، الجميل الروح، غادرنا في «عام كورونا»، رحل مع كوكبة من العباقرة والشخصيات الأدبية، التي برعت في صنع المشهد الثقافي لأوطانها، وغادرت في صمت.

ربما ما يحدث اليوم بسبب فيروس كورونا، جعلنا نكره أن نحدّق في الموت، بل على العكس فنحن نحاول أن نتجنّبه، بهدف إخفائه، أو زواله وتنحيه جانبا. فقد فُرض علينا أن نعيش حالة الحداد بشكل فردي وحميمي، بعيدا عن النظام الاجتماعي والجماعي الذي كان ساريَ المفعول، إلى أن كشّر كوفيد 19 عن أنيابه ووضعنا أمام حقيقة صادمة، إننا وحيدون في هذا العالم، مصائرنا الخطيرة نواجهها دائما بمفردنا، وأن كل تلك الجماعات والتجمعات التي ننتمي إليها وهم كبير. وها هو الموت يكشف كم نحن عُزّل من الدرع الجماعي الذي كنا نحتمي ونتباهى به في السابق.

في عزاء فريد رمضان الافتراضي، لفتت نظري «كتابة الحداد» التي رافقته، قرأت الكلمات التأبينية التي كتبها أصدقاؤه فيه، بعضهم ليسوا أكثر من أصدقاء فيسبوكيين لم يلتقوا به ولا مرة، ومع هذا أبدعوا في وداعه لغويا، بعواطف متأجّجة، وأساليب تعبيرية فاقت ربما أساليب من عايشوه. كتب كثر أنّه روائي البحرين الأول، بالتأكيد هو روائي كبير، ولكن هل قرأناه بالكمّ الذي يكفي؟ كتب أحدهم أيضا أن فريد رمضان سرقته السينما البحرينية، ولو أنّه أخلص للرواية أكثر، لما غطّته أسماء روائية أقلّ إبداعا منه، وهذا في نظري غير صحيح، فقد أخلص فريد لكل كلمة كتبها، سواء للسينما أو للسرديات. لكن مشكلة فريد أنّه لم يتخذ لا من الأدب ولا من السينما حصانا لبلوغ محطّة الأضواء. لقد كتب لأن الكتابة خلاصُه الوحيد مما كان يعيشه، إذ أنّ تجربته فريدة وموجعة مع المرض والإرهاق الجسدي المتكرر، لهذا كانت الكتابة صديقته، رفيقة عمره، وحبيبته، وإلاّ كيف اختارها في بلد عربي على أن تكون مورد رزقه؟ أي مغامرة مجنونة هذه التي خاضها؟ نندهش ونحن نسمعه يروي لنا حكايته مع الكتابة، ولعلّه رواها بعفوية كبيرة، بدون أي رغبة لإدهاش سامعيه، بدون أن يضيف ما قد يضفي عليها من صفات خارقة كالتي يعتمدها كُتّاب آخرون، إذ لم يخطر بباله أن رجلا يملك دماغا مبدعا وجسدا منهكا لا يمكن لأي مهنة أن تسعفه غير الكتابة. لقد كانت قدره الوحيد، مُنَزّلة إليه من السماء، فاستسلم لها وسلمها نفسه، لا خاضعا ولا راضخا، وإنّما مطمئنّاً.

في البحرين هو حبيبنا جميعا، هو المبدع المتّفق عليه كهمزة وصل لا جدال فيها بين أهل الثقافة والفن، حتى المتخاصمون يتفقون في محبته وإن أبقوا على خصوماتهم الشخصية. حصل على هذا الشّرف بدون أن يتملّق أحدا، وبدون أن يغيِّر في مواقفه لأجل فريق على حساب آخر، حتى أنّه لم يقف على الحياد، رفض أن يكون حياديا، مثل ظلال منتصف النهار موجودة وغير موجودة. كغصة في القلب ترمقني روايته «المحيط الإنكليزي» بحزن، فمنذ اقتنيتها وهي هنا، تنتظر دورها بين فوضاي التي تختلس مني أحيانا حرارة اللحظة ودفئها، أبرمجها، ثم أؤجلها بسبب مناسبات أدبية تفرض عليّ قراءات أخرى، وفي بالي أن فريد لا يلاحق أصدقاءه مُلحّاً كي يقرأوه. لطالما سامح ببذخ لقد كان الأَدب بالنسبة له مساحة طليقة، يمارس فيها الكاتب والقارئ معا حريتهما، وهذا ما يبني علاقة ود خفية بين الكاتب وقارئه. وهي من أجمل العلاقات التي تُولد من رحم الكتابة.

ما لفتني هو كل هذا الطلب على الرواية بعد غياب فريد، فقد وجدتني واحدة من بين عشرات المتلهفين لقراءتها، وتساءلت لماذا يولد بعض الكُتّاب بصيغة مختلفة لحظة موتهم؟ هل هي محاولة لاستعادتهم؟ أم إدراك متأخر بمدى أهميتهم؟ خلال تصفحي لتعليقات القراء المفجوعين في غيابه، كتب أحدهم: «أين كنتُ حين قرأ الجميع هذه الرواية؟». وضعت له قلبا وأنا حزينة أكثر منه، وطرحت السؤال نفسه على نفسي. في موضوع آخر كتب قارئ تعليقا عصف بي حتى شعرت بأني فقدت توازني: «هذا إعصار روائي! أكثر من أربعمئة صفحة بدون الشعور بالملل للحظة، حبكة رائعة، وشخصيات كثيرة تثير العجب والتفكير. موضوع الهوية والانتماءات المختلفة التي كونت الشعوب الخليجية كان لافتا جدا».

المفريد يباغتنا بالرحيل

ربما قلت لنفسي إنّها رواية السّاعة، وما أحوجنا إليها لنفهم تاريخنا الإنساني المتشابك، إذ لم يعد مقبولا أن نعيش مزيدا من الشتات ونحن ننتمي للجذور الإنسانية نفسها. صحيح أن الذين شيّعوا فريد رمضان إلى مثواه الأخير بكلماتهم التأبينية كشفوا أولا تقصيرهم تجاهه، فوضعوه في واجهة كانت محجوزة له طيلة السنوات الماضية، لكنها لم تمنح له تماماً، لكنهم أنصفوا أدبه بدون مبالغة في ذكر محاسنه.

ويبدو لي أن رواية «المحيط الإنكليزي» التي سكنت رفوف المكتبات منذ سنتين سيكون لها مصير آخر ما دامت قد خرجت للضوء بكل هذا الزخم التعبيري بشأنها.

لقد خاض فريد رمضان معاركه على الورق ضد الجهل الشرس الذي افترس العقول والضمائر. كان مراقبا رائعا لتاريخ البشر، وأدرك بنظرته الفلسفية العميقة كيف تتشكّل الجماعات، والقبائل، والأمم. وهذا ملخّص درسه الفلسفي - التاريخي الذي قدمه في أجمل أشكاله الإبداعية، متخذا الأدب والسينما سبيله النّاعمة لإيصال أفكاره العظيمة.

رحل ابن المحرق، ابن أجمل بقعة في البحرين، وقصيدتها النابضة عشقا، تاركا سحر عينيه المبتسمتين مطبوعا على أبوابه الخشبية الفائقة الجمال، وشوارعه الضيقة الشبيهة بشرايين القلب. يكاد الزائر للمكان يرى بصماته على كل شبر من حيطانه، يكاد يسمع وقع خطواته وهو عائد كل مساء، متفقدا أمكنته المفضلة.

يستحيل ألاّ يُرى الصبي الأسمر ذو العينين الضاحكتين وهو يركض خفيفا مثل غزال صغير خرج من أسطورة قديمة، وقد تخلّص أخيرا من كل أوجاعه التي جعلته يعبر إلى سنّ النضج منذ لحظة ولادته.

تبقى .. كأنك لم تمت

للوهلة الأولى .. فكرت بأنه حصد بلا شك جائزة جديدة . «بسرعة ، سأرسل تهنئة»، قلت. ثم فجأة بدأت حروف النعي تصفع عيني بقسوة. وعقلي لا يصدق. فطوال سنوات كان يعارك المرض. وينهض. يتوعك. ويفوز. ماذا استجد الآن ليخسر المعركة؟.

«قولوا إنني أحلم». قولوا إننا جميعا نحلم، سألت بعضاً من أصدقاءنا المشتركين. كان عندي بصيص أمل بأن يجيب أحدهم بأن الخبر كاذب. لقد «أخطأوا» . أو «تسرعوا». إنه خبر بشع كاذب وسيحاسب من تعمد إطلاقه ليحزننا. لكن أحدا لم يرفق بي وينكر الخبر.

هل يكفي ذلك ليجعل من رحيلك حقيقة بالنسبة لي ؟؟

الحقيقة .. الحقيقة هي أنني كنت أشق الطريق وحدي لسنوات، ثم منّ الله عليّ بمعرفتك. شاءت الظروف أن نلتقي في منعطف الطريق، فكنت أول من اهتم بي ومدّ لي يد العون. ولست أنسى أبداً المرة الأولى التي هاتفتك فيها لأطلب منك – على استحياء – مساعدتي، لما عرفه عنك الجميع من تقديم الدعم لـ (الشباب) الذين كنت في ذلك العمر «أحسب» في عدادهم. ومن يومها، وأنا أرسل إليك أفكاري العادية فتحوّلها إلى قطع من ذهب. تعالج كل نص بشكل خارق، وبطريقة لا تخطر على بال أحد سواك. لم تقل يوماً بأن «لا وقت لديك» للوقوف إلى جانبنا. ولم تشتك يوما بأن تلقيك العلاج يحول دون « معالجتك « نصوصنا .

أنت أول من دلني على الطريق. ووضعني على أول السلم. بفضلك، حققت أشياء كانت فيما سبق من أيام تبدو حلما مستحيل الحدوث لمن هو مثلي . وحين كنت تقدمني للآخرين، كُنتَ تلمع صورتي وتقول عني كلاما أكبر مما أستحق. فأخجل من تواضعك ، ومن مساندتك ، ومن لطفك الذي قلما يجد مثله أحدنا في هذا العالم . ثم فجأة، أشعر بالرغبة في الاختباء. أنزوي على نفسي لأنني أخاف أن لا أكون جيدة حقا كما تتصورني وتصور عني للآخرين. أخاف أن يأتي يوم أخذلك فيه وأخيب ظنك.

بصفتي ممرضة، كنت تسألني أحيانا عما نراه من أنواع المعاناة البشرية المختلفة. كيف يتقبل الناس نصيبهم من الحياة؟. وبصفتي «كاتبة «، كنت تسألني إن كنت أفضل الكتابة بالليل أم بالنهار. وما هي طقوسي قبل أن أكتب. ما الكتب التي أقرأها؟ وماذا يجب عليّ أن أقرأ. كيف أطور «أدواتي». تعاملني، أنا المجهولة، وكأنني أنا «المهمة هنا»! . كأنني أهم منك!.

نصائحك .. ربما فشلت في اتباعها كلها. فلم أصبح بعد أقلّ خجلا كما يلزمني. ولا أكثر شجاعة. أترى ... ما زلت في حاجة للكثير من الدعم . فانهض.. من أجلي. ومن أجل كل من أحبوك هنا في هذا العالم الذي لم يستحق يوما وجود ملاك مثلك على أرضه. انهض .. ما زلت بحاجة للكثير من النصح والإرشاد، والمحبة التي تغدق بها على الجميع. أيأست مني لهذا الحد ولن تعود لتمد لي يديك؟. هل فشلتُ كثيرا إلى حد أن غضبتَ مني ورحلت؟؟ .

ألن يصادف أن ألتقيك مرة أخرى، في ندوة ما؟ . أحقا .. لن نتجول معا من جديد في معرض الكتاب؟ ولن نلتقي مجددا في أي مهرجان سينما؟ في نادي السينما؟.. أو في مشاريع كتابة مشتركة تحدثنا عنها مطولاً من قبل ثم ألهتني الحياة، وشغلك المرض فتأخرنا عنها؟. ألن تعدني مجدداً، بأن تحضر لي في المرة القادمة كتاباً مهماً عن السينما يجب أن لا أفوت قراءته. أو تسمي لي فيلماً جديداً لا بد أن أشاهده ؟

فتحية ناصر

يا صاحب الأفضال عليّ، كيف تركتني في منتصف الطريق؟. خدعتني بابتساماتك حين تحكي عن مرضك، فصدقت أنني برغم ما تقول لن يأتي علي يوم أسمع فيه خبر موتك. خدعتني .. إلى حدّ أن تجرأت مراراً وشكوت لك بعض همي وكأنك لست أكثر تعباً في الحياة مني. فكم أنا خجلة الآن من نفسي.

أتساءل الآن إن كنت قلت لك ما يكفي من المرات قبل أن ترحل، كم أنا ممتنة لكل ما قدّمته من أجلي. هل شكرتك بما يكفي؟. هل علمتَ، قبل أن تغادر هذا العالم، كم أدين لك بالعرفان؟ إن كنت لم تعلم فعد إلى هنا لدقيقة أخيرة. أو لنصف ساعة، لن تكفيني لشكرك على كل ما فعلت. ولكنني على الأقل سأعرف أنها فرصتي الأخيرة لأفعل، ولهذا فلست أنوي عتابك على رحيلك المفاجئ، لا تقلق.

بدل العتاب، سأطمئنك ..

هل قلت لي مرات من قبل بأنك تحب محمود درويش؟ . وهل قال درويش ذات قصيدة «تنسى كأنك لم تكن» ؟... حسناً، فأنا أقول بأنك «تبقى ... كأنك لم تمت. نعم، فالشعراء يخطئون أحياناً. وأحيانا يكذبون !.

أما الحقيقة..الحقيقة التي سأطمئنك إليها فهي أننا وإن ظلت الحسرة في القلوب، فإن لك في الذاكرة من نبل المواقف ما لا يمكن للزمن أن يمحوه. وفي الروح، لنا منك عطر أخير. عطر لقاءات لن تكون . ولن يبدد الوقت عطرها.

المفريد يباغتنا بالرحيل

فريد رمضان السارد المنشغل بالهوية

د. حسن مدن

تشكّل التجربة الروائية لفريد رمضان حالاً إبداعية جديرة بالمعاينة الرهيفة، في نطاق المشهد السردي في البحرين، وبمقدار ما تعدّ هذه التجربة مشتبكة في الموضوعات التي تعالجها بمجمل المعطى الروائي لسابقيه ومجايليه من كتاب السرد في البحرين، من حيث الاهتمام برصد وتتبع تحولات مجتمع البحرين الذي عرف تاريخه مواضع توتر اجتماعي وسياسي عدة، فإنها تشكّل حالاً خاصة في طرقها لدروب جديدة.

يجعل فريد رمضان من شخوص رواياته: التنور(١٩٩٤)، البرزخ (٢٠٠٠)، السوافح (٢٠٠٦)، مقيمين لا عابرين، لأنه لم يستعن فقط بالمادة التاريخية وحدها التي انكبّ على جمعها، وإنما إلى معايشات، ينتسب بعضها إلى ما يمكن وصفه بالسيرة الذاتية للكاتب، أو سيرة المكان الذي يختاره ميداناً لأحداث رواياته.

يشتغل فريد رمضان على مادته الروائية بعناية الباحث الذي يجمع من مصادر البحث ومراجعه المختلفة كل العناصر الضرورية لإقامة المعمار الروائي بما يضمه من أحداث ووقائع وتفاصيل أمكنة وشخوص تجمع بين الواقعي والمتخيل، وهو لا يتردد في تجليس وقائع حصلت في تاريخ المكان الذي يكتب عنه على سياقات أخرى مختلفة، وينسب أفعالاً وقعت فعلاً في تاريخ الحيز المكاني الذي تدور فيه أحداث رواياته (حي البوخميس وقرية البسيتين في جزيرة المحرق، وحي النعيم بالمنامة)، إلى شخوص هم من ابتكار المخيلة، أو هم حاصل تركيب بين الواقعي والمبتكر.

ولا ينجو الكاتب من تأثير الذاكرة، ذاكرته كفرد، وهو طفل أو صبي، وهو يحكي، فالذاكرة تضطلع بعمل استثنائي في التغلب على الفقدانات الفردية والجمعية، إن حي البوخميس أو قرية البسيتين كمكانين يحتويان أحداث روايتي (التنور) و(البرزخ) لم يعدا قائمين بالصورة التي نقرأهما في الروايتين، فقد جرت تحولات ديمغرافية حاسمة غيّرت صورة المكان وبدلت أهله، ومن اجل إعادة تقديم صورة المكان كما كان، فان الذاكرة تسعف الكاتب في سدّ الثغرات الناشئة بسبب هذه التبدلات.

ولا يقف الأمر عند حدود هذا المعطى المكاني فقط، فالذاكرة تؤدي ما يمكن أن نعتبره وظيفة «ثقافية»، في تكوين وعي الطفل أو الصبي فريد رمضان، الذي سيغدو روائياً، وفريد رمضان ان بدا، ظاهراً، انه ينشغل ببيئات محلية يختارها كنماذج، أو كحيز مكاني في مقطع زمني معين، فانه لا يحتفي بهذه المحلية، ولا يعطيها الأولوية، فالبيئة التي تنطلق منها أحداث رواياته وفيها تتحرك شخوصها، ليست سوى عينات لاختبار تحوّلات المجتمع وتفاعلاته، والمقصود بالمجتمع هنا هو ما نعدّه بعداً وطنياً جامعاً، فما يمور به حي النعيم في «السوافح» وقرية البسيتين في «البرزخ» من أحداث يبدو وثيق الصلة بحراك أوسع، ليس من شأن الكاتب أن يغرق نفسه في تفاصيله، ولكن أحداث رواياته تقدّم الضروري من المفاتيح لولوج عوالم تتخطى محدودية المكان الصغير الذي ينشغل الكاتب برصد التحولات فيه.

واللافت في كتابة رمضان، أنه ينطلق من إحساس بالحدب والحنو على شخوصه الآتين إلى البحرين من سياقات جغرافية وثقافية أخرى، رغم أنها قريبة ومتشابهة في الكثير من الأوجه مع بيئة البحرين التي أتوا إليها، وسرعان ما وجدوا نفسهم ينخرطون في سياقها الحياتي، وبالتالي تأتي هذه الكتابة مشبعة بروح التسامح الإنساني، التي تنطلق من نبذ فكرة «أصالة» المجتمعات بمعناها المبتذل والسوقي، ففي عالم اليوم بات صعباً الحديث عن الصفاء العرقي أو الإثني أو حتى الديني، فالمجتمعات، بما فيها مجتمعاتنا الخليجية هي حاصل تفاعل مكونات مختلفة متعددة المشارب، والمفارقة تكمن في أن الروح المهيمنة على روايات فريد رمضان تأتي في زمن انفجار الهويات الفرعية واشتباكها في العالمين العربي والإسلامي.

التدقيق هنا ضروري، فالشغل الروائي لفريد رمضان لا يرمي إلى القول بأن البنية السكانية لمجتمع البحرين هي مجموعة هوامش أو فروع تقاطعت عند مرحلة معينة، فأي مجتمع هو في نهاية المطاف يتكوّن من متن بشري تشكّل تاريخياً واستقر في بيئة جغرافية معينة، ولكن هذا المتن لا يمكن أن يظل منغلقاً على نفسه، وفي حال جمود أو«صفاء» عرقي، خاصة في حالة بلد مثل البحرين هي مجموعة جزر وميناء مفتوح على الوافد إليه من محيطه، مما يجعل من هذا المتن السكاني المتشكل تاريخياً في حال صيرورة دائمة بانضمام عناصر جديدة إليه عبر الهجرات وأوجه الرحيل المختلفة، مع ملاحظة مقدرة هذا المتن على استيعاب الوافدين الجدد إليه، وإدماجهم في بنيته، فلا تعدو هذه العناصر تضاريس نافرة على سطح مستو، وإنما تندغم في النسيج القائم، فتُضفي عليه حيوية إنسانية وثقافية جديدة نابعة من جينات تشكّلها الأصلي في المواطن التي أتت منها.

تحضر الهجرة في روايات فريد رمضان كخيار قسري، حين تجد شخوص رواياته نفسها محملة على أن تقتلع من بيئاتها الأصلية لا بمحض إرادتها الحرة، وإنما لأنها لم تعد تحتمل العيش فيها، إما بسبب ضيق اليد وانسداد أفق الحصول على الرزق كما هو الحال في شخوص «التنور» خاصة، أو هروباً من ملاحقة محققة كما في حال هجرة العائلة العراقية من البصرة إلى البحرين في رواية (البرزخ)، وتتداخل في الرواية الواحدة الأسباب، كما هو الحال في رواية «السوافح» مع هجرة الجد من الإحساء خوفاً، أو جرياً وراء قدر غامض صنعته المصادفات وحدها في حالة الزوجة خاتون التي رحلت من البصرة إلى النجف بالعراق، وفي ضريح الإمام علي صادفها بطل الرواية، حين وقعت عيناه عليها وهي تشترك في تنظيف فناء الضريح، فقرر من لحظتها أن

المفرد يباغتنا بالرحيل

يتزوجها، ويأخذها معه إلى البحرين.

الرحيل هنا إذ يبدو مخرجاً، وهروباً من وضع لم يعد يُحتمل، فإنه ينطوي على معاناة إنسانية مؤلمة، حين يجد المرء نفسه محمولاً على قطع جذوره مع البيئة التي نشأ فيها وألف ناسها وتفاصيلها وتشكلت له فيها ذاكرة، ثم أن الهجرة في الغالب تأخذ الطابع الفردي أو العائلي المحدود، أو أنها مجرد انتقال مؤقت من مكان إلى آخر، ضمن نطاق جغرافي كان ممتداً وربما بدا في أعينهم واحداً، على أمل العودة، مرة أخرى، إلى مسقط الرأس، مما يعني أن من هاجروا يُخلفون وراءهم في أوطانهم الأم أحبةً وأهلاً، يظلون مشدودي الفؤاد إليهم، بما في ذلك الأموات منهم الذين حوتهم تربة ستبدو نائية، فيبدو إحساس القرب حتى من قبور من نحبّ من الأموات يهبنا الألفة، فما بالك بإحساس القرب من الأحياء من هؤلاء الأحبة؟.

وتزداد المعاناة فداحة حين يتحول الرحيل الذي خطط له في البداية على أنه مؤقت إلى إقامة دائمة في المكان الجديد، الـذي تنبت للقادمين إليه جـذور في أرضه، لا يعود بالوسع اقتلاعها ثانيةً.

الإحساس المثقل بـالألم جراء الرحيل يُعبر عنه الكاتب من خلال استعادة ذكريات المكان الأول، ونجوم السماء الأولى، فمن يقرر الهجرة يصبح مشطوراً بين شعورين كلاهما مُعذب: الرغبة في الرحيل هروباً أو نأياً عن بيئة طـاردة، أيـاً كانت الأسباب، مع ما تنطوي عليه هذه الرغبة من خوف من المجهول، وترقب مقلق لما يحمله الغيب من مفاجآت في ديار غير معهودة عند الراحل إليها، فلا يعرف إلى أية مصائر هو ذاهب، حتى لو كان وازع الرحيل عنده من القوة بحيث لا يُقاوم.

ومن جهة أخرى فإن ألم الإقتلاع من المكان الذي ألفته هذه الشخوص لا سبيل للتخلص منه، لأنه مهما كانت قسوة هذا المكان، فإنه، على قسوته، يتحول حين نغادره قسراً محمولين على الهجرة، إلى فردوس فقدناه أو أوشكنا.

لكن المعاناة لن تنتهي هنا، وإنما ستأخذ تجلياً آخر عند الوصول إلى المكان المُشتهى، بديلاً عن المكان الذي هجرناه، وهذا ما سيجد تجلياته في المصائر الفاجعة أو المُعذبة لشخوص روايـات فريد رمضان، التي ستظل ملاحقة بالألم في مكانها الجديد في البحرين، فنحن إزاء جُهود مُضنية لتأسيس حياة جديدة، كأن لحياة المرء أكثر من بداية، ويزيد من فداحة هذه البداية الجديدة أنها تنشأ على أرض غريبة.

يصح هذا القول رغم ما يشيعه الوصف الممتع الدافئ للكاتب من شعور بالألفة في نفوسنا نحن القراء، وربمـا في نفوس القادمين الجـدد، لأمكنة نعرفها جيداً كمرفأ المنامة، أو شارع باب البحرين الذي يفضي إليه قوس أثري من الآجر، وما في حركة السوق من حيوية وزخم، في جزيرة تقذف إليها السفن قادمين جدد كل يوم: «يمران أمام باب البحرين الذي يبدو في هذا النهار الجديد بؤرة للابتهاج والحـبـور، فالمبنى المطلي بالجير الأبيض الناصع يطل على مرفأ المنامة الكبير، وميدان الجمارك، حيث يمكن للمرء مشاهدة حركة العمال، والسفن، والقوارب، بأحجامها وأعدادها الكثيرة التي تصل أحيانا إلى مائة سفينة. (التنور ض 76).

أكان عليك أن تمـــوت؟!

نعيمة السمّاك

طوال الأسبوع الأول الذي تلى رحيله، وأنا أقول لنفسي سأكتب شيئاً عن فريد، ولكن ماذا عساني أكتب؟ قرأت معظم المقالات التي كتبها الأصدقاء عنه. أعجبت بها كثيراً. كلما قراتها شعرت بعجزي أكثر إزاء أن اكتب شيئاً.

أذكر أني كنت في منتصف الثمانينات من القرن الماضي، أوائـل سنوات عملي بوزارة التربية والتعليم في مبناها بمنطقة القضيبية، حيث كنا نعمل في إدارة العلاقات العامة والأنشطة التربوية (اسم الإدارة آنـذاك)، كان فريد يأتي يأتي، أحياناً، لمقر عملنا ويطلع بعض الأصدقاء من زملاء العمل من الأدباء والفنانين على كتاباته.

ذات يوم هاتفني فريد من أجل ترتيب لقاء الأربعاء بأسرة الأدباء والكتاب. قال: ليس عبثا اخترتك أن تكوني معنا بلقاء الأربعاء،علماً بأني لا أتذكر الآن من كان المنسق، ولكننا نلتقي مساء الأربعاء بمقر الأسرة، ثم أصبحتُ كلما كتبت شيئاً أُطلع فريد عليه. اطلع أولاً على الشعر ثم لاحقاً على السرد. أذكر حين أطلعته على قصة «بحجم القلب» قال: جميلة جداً ومكتملة، وقد ضمنتها، فيما بعد في مجموعتي القصصية: (أيام خديجة).

كنا نتبادل الإيميلات لأن الهاتف النقال لم يكن قد ظهر بعد. حين أرسل له قصة أو قصيدة أبقى في ترقب بانتظار رأيه.

آخر مرة التقيت فيها فريد في معرض الكتاب عام 2018، واذكر أنه حدثني، يومها، أن روايته (المحيط الإنجليزي) ستصدر قريباً، (صدرت في سبتمبر 2018 عن دار سؤال) وحضرت حينها حفل تدشين مجموعة زوجته أمل: (وقت ليس لي). تبادلنا، يومها، بعض الأحاديث المقتضبة. ورأيته آخر مرة عبر الفضاء الافتراضي حين أقامت له أسرة الأدباء لقاءاً عبر "زووم» عن الرواية نفسها.

قاسياً هـذا الرحيل المباغت. أرسلت الصديقة فضيلة الموسوي عصر الجمعة 6 نوفمبر (فريد رمضان في ذمة الله)، كأننا كنا نياماً واستفقنا على لذعة ثعبان. توالت المسجات عبر مجموعة الواتساب تباعاً، الله يرحمه. وكتب احدهم، تحققوا من الخبر، هل الخبر صحيح؟.

كعادتنا لا نصدق أو لا نريد أن نصدق. رحت من فوري، أبحث في مواقع الانترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، لم تكن هناك أي إشارة إلى رحيله، فأرسلتُ رسالة صوتية إلى الشاعرة فضيلة الموسوي استفسر منها. وأجابتني بمسج صوتي آخر: الخبر حديث جداً، ليس لدى أي تفاصيل.

كان نبأ رحيله صحيحاً للأسف. لماذا نحن في غفلة؟ لماذا نعيش المسلمات ونعتقد أن الأشياء السيئة لن تحدث لنا أو لأحبابنا.

كل شيء ممكن الحدوث. بعدها توالت «مسجات» التعزية، ومع حلول المساء نشر الخبر رسمياً في جريدتي (البلاد)، و(الوطن) وبقية الوسائل الإعلامية. إذاً فعلتها ورحلت يا فريد. ومنذ رحيله لم تتوقف المقالات عن فريد. ومـازال هناك كم هائل في الطريق سيكتب أيضاً.

أكـان عليك ان تموت يا فريد، لنعرف وتعرف مدى ومقدار حب الناس لك؟ أكان عليك أن تموت، لتتدفق كل هذه الكلمات الرائعة في صفاتك وخصالك، أكان عليك أن تموت، لنعرف وتعرف مكانتك في قلوبنا. أكان عليك أن تموت لنرثيك بكلمات دامعة. أكان عليك أن تموت لنشعر بفقدك كل يوم؟.

يتفكّرون

حينما بدأت قصة الخليقة، وتعددت رواياتها، تفرّع البشر إلى كل المهن، لم يكن الدين مهنة تكسُّب مثل الوظيفة بشكلها الحالي، بل هي محل احترام وتقدير على مرّ الأزمان. لكنه في وقت ما، وفي ظروف ليست غامضة تماماً، أصبحت الأديان محلّ تجارة خطيرة ذات مردود مادي وسلطوي كبير، وتخويل بإدارة أمور البشر في أدق التفاصيل.

زهراء المنصور

وهكذا تعامد الطرفان: طرف سلطة دينية أبوية مجتمعية لها حرية الحكم والتحريك وإصدار قوانين –مطاعة بالضرورة – يتقاطع بعضها مع العقل، وطرف آخر سلّم مسؤولية التفكير ببساطة لشخص أو جماعة من الطرف الأول، ضمن لائحة لا جدال ولا تشكيك. فالفرد المكتفي بقدر محدود من العلم، يخاف من مزيده؛ لأنه من سيوضع في ركن المسؤولية التي سلمها هو بإرادته وقناعته التي ترى أن الطريق الأسلم للنجاة هو البقاء مع العموم ممن سلموا قبله، وما سيجري عليهم سيجري عليه داخل حلقة الأمان هذه؛ لا خوف ولا قلق!

وليست هذه فكرة للعبث بمعتقدات، أو خرق ما يسمى بالتابوهات التي عفى عليها الزمن بفضل تطور الأدوات المعرفية، فمازالت هناك طرق التفاف كثيرة متاحة لطرح الموضوعات، وعقلنة كثير من الأمور، بأسلوب لا يتصادم مع صاحب الرأي الآخر؛ فقط للفهم، وحتى يكون السلوك بعدها على يقين من صحته، وليس اتباعاً لما تمّ توارثه، دون معرفة مناسبته أصله/ ضرر تركه/ أو فائدة متابعته. حتى أن بعض المشتغلين بالدين أعادوا تشكيل ما أكدّت عليه الأديان من مثل عليا في التسامح والمحبة والسلام، وتخصصت في تفاصيل الاختلاف؛ حتى تحشد الأتباع ضد من يخالفهم، بوصفهم الفئة الفائزة بالجنة، وما عداها ذر في هواء، وعلى ضلالة قطعاً.

أن تكون داخل الجماعة، لا يعني بالضرورة أن تفكر بطريقتهم، وتتبنى أفكارهم إن كانت على غير قناعتك، بعد إشباعها بحثاً – بالتأكيد لا –؛ وليست لأنها لم توافق هواك. فالبحث عما وراء الجدار، ورؤيتك بنفسك للمحتوى، أفضل من أي وصف وشرح يأتي ممن وكّل نفسه أن يقوم بذلك مقابل إجلال قد لا يستحقه.

فكيف يرفض المرء فكرة الترفع عما دفعت إليه الأديان أصلاً؛ في التأمل والعبادة النابعة من الشكر الصادق لكثير من النعم، والدعوة للتأمل في التكوين والخلق، في حين أن التفكُّر ورد – مثلاً – في القرآن الكريم نحو تسع عشرة مرة، معظمها مقرونة بالتدبر، وإدراك المعاني والإيمان؟ وفي هذه الحالة، يجب على الدينيين «الحقيقيين» الدفع بتنوير العامة، عبر فتح أفكار تنحو لسيادة العقل، والتحرر من التبعية غير المبررة، مع التأكيد الشديد والحازم جداً في أن الوصول إلى نتيجة – بعد التفكر– يجب أن تحدث بتريث، وعلى مهل مُرض.

وقد قُدّمت صورة السلطة الدينية بأشكال مختلفة في الدراما، حسب توجه القائمين عليها أيضاً. فعندما يعمدون إلى تقديم «علي الظاهري»، الذي جسّد شخصيته عادل إمام في فيلم «الإرهابي» 1994، من تأليف لينين الرملي، وإخراج نادر جلال، في وقت كان الإرهاب يرتكب باسم الدين، بيّن الفيلم كيف تنتقى عينات مثل البطل: جهل، وفقر، وجوع، وقابلية تلقائية لعمل ما يؤمر به، حتى لو كان قتل أبرياء، تحت مظلة الدين.

وحين تطرأ أسئلة مشروعة جداً حول شيء ما، يُمنع بشكل قاطع من الجدال، رغم أنه لم يتخطَّ مرحلة الفهم أصلاً، وتحصيل الأجوبة عن الأساسيات التي يتبعها ويمثلها، باعتبارها من مهام الكبير/ الأمير، الذي سيفتح له السؤال والنقاش باب تهديد لمكانته المكتسبة، وهو يتلقى أموالاً من جهة ما غير معلومة، إلا له ولمن في مقامه، يلقي بفتاتها على «الظاهري» وأمثاله ممن يعبرون هذه الحياة مغيبين، بلا بصمة شخصية لهم، دون أن يتجرأوا على السؤال أو المقارنة، لأنهم – أمام الكبير– لازالوا في مرحلة القصور العقلي التي لا تسمح لهم بتجاوز حدود وهمية مرسومة للمحافظة عليهم وعلى المجتمع الذي يتم تحشيدهم للدفاع معتقداته بالشكل المطلوب.

وبينما البطل هنا مغلوب على أمره، مهما كان «فاعلاً»، منذ استشعرت الدراما خطر الإرهـاب على المجتمع، يتم تقديم الشكل المتشدد الذي يشبه أحياناً نماذج قريبة من محيط حياة الفرد، لكن بمبالغة في رسم شخصياتها، حيث يميل القائمون عليها إلى إيصال رسالة: اخرج من القوقعة، فالعالم يتسع لمزيد من الأخطاء وأنت تمارس انسانيتك. فكّر بلا قيد، وأعمل عقلك كما أراد الله لك. لذا نرى الاختلاف في شخصية «الديني»

لينين الرملي

عادل إمام في مسلسل «الإرهابي»

هاني سلامة

باختلاف موقعه، ونضجه، وتكوينه الفكري أيضاً. في مسلسل «الداعية» (2013) تأليف مدحت العدل وإخراج جمال العدل الذي قدم الشاب الوسيم صاحب البرنامج الديني على إحدى الفضائيات، والذي يحمل آراء حادة/ متطرفة/ وواثقة أيضاً، وهذه الثقة تتسرب إلى مريديه في هيئة إيمانية لا تقبل الحياد، لأنه أقفل باب النقاش بزعم الوصول إلى الحقيقة المطلقة غير القابلة للتفاوض.

وفي المقابل، هناك من يسخّر نفسه لأن يكون تبعاً طول حياته. لذا فجمهور الداعية موجود ومتجدد أيضاً، وهو أمين في آرائه التي لا يعيش انفصاماً عنها، حتى مع أسرته الصغيرة التي يحمل عبء مسؤولياتها صغيراً، وقت كان والده يلهث وراء ملذاته، فالحرام حرام بحزم داخل المنزل، والموسيقى حرام، والأفراح الصغيرة التي تخلفها ذكرى أعياد الميلاد بدعة تؤدي إلى النار مباشرة، حتى يتعرف على جارته؛ عازفة الكمان في الأوبـرا، ويحدث التغيير الدراماتيكي المنتظر من الدراما، والنادر في الحياة!

هذان النموذجان تحديداً يؤكدان أنه متى ما وُجدت الحرية، سيوجد الفن الـذي يُحرر العقل من الجمود والنمطية، وميل الحياة لمزيد من الحب والجمال والسلام، لأنها قيم لا يمكن أن تتوفر في الأجواء المنغلقة التي تحكم قبضتها على مصادر السعادة، وترى المتع الجميلة الكائنة في لوحة تشكيلية، أو مسرح، أو أي فن، منبعاً للفساد وميوعة المجتمعات.

إن التفكّر هو المنحة العظيمة التي يجب أن تستغل بالشكل الأمثل، الذي يضيف للحياة نكهة، ولوناً، وتميزاً عن الآخرين، ومنطقة خاصة لا تشبه الآخرين. ولو أراد الخالق أن تكون تبعاً، لما ساوى في اكتمال تكوين عقل إنسان وآخر، أحدهما قرر أن يكون نسخة مطيعة مغمضة العينين والقلب!

وبين فرق الزي العصري للداعية، وعلي الظاهري بالشكل النمطي المهلهل للمتطرف، فإن المضمون واحد، والتعبئة من مصدر واحد؛ التكسب متعدد، ولكنه متشابه، والمجتمعات تبحث عن مخلص يجنبها عناء التفكير. وقد تكون مسألة السلطة مبررة، حين كانت المعرفة مقتصرة على من يجيد القراءة والكتابة، وتتوافر لديه مصادر التعلم قديماً، لكنه غير مقبول بعد انقضاء هذه المرحلة، وتراجع نسب الأمية في كل العالم بفضل تصاعد الاقتصاد وتبعاته، وما ينتج عنه من تحسين نوعية الحياة، وعليه توفر المعرفة بكافة أشكالها ومصادرها الورقية، أو عبر محرك البحث السريع، وهي مراجع تمكن القارئ الواعي من التبحُّر في أي تخصص – ربما نستثني منها التخصصات العلمية الدقيقة التي تحتاج إلى ممارسة عملية – من تكوين أفكار ونتائج يتوسل إليها بقناعة الباحث الذي لا يمانع أن يصحح أو يحدثها بناء على مستجدات وحقائق مادية جديدة.

كما أن من غير المنطقي أيضاً أن يعمم هذا الشكل على كل من ينتمي للسلطة الدينية. ولكن التركيز على من يحولها لمحل «استرزاق»، أو كسب عيش، سواء عبر العطايا التي تأخذ شكل «الأتاوة» المقنعة، أو جزية تعطى ظاهرياً برضا، وباطنياً بحسابات ثواب وعقاب في الدنيا وفي الحياة الأخرى، دون القدرة على تحييد العقل والتفكير في ماهية المنح.

وبمجرد الاطلاع على بعض كتب السيرة، أو حتى الدراما التي كتبت حولها، فإن قليلاً من الوعي سيكشف مدى «التأليه» غير المبرر لأشخاص لهم بالتأكيد أخطاؤهم كبشر، والتي تدفعهم أنفسهم البشرية إلى الميل نحو شهوة ما، مما يجعل الصورة المثالية غير مقنِعة على الإطلاق، حتى وإن ملنا عاطفياً لأشخاص معينَين، بحكم مواقف شهدناها، أو تاريخ يروى أو يسود من قبل آخرين يسلطون الضوء على الجانب الإيجابي الذي يخصهم تحديداً.

إن إجلال ممثلي الدين – أو من في دوائرهم – يجب أن يتفق مع المنطق، ولا يتم التسليم لمجرد الدرجة العلمية، التي غالباً لا تكون موجودة، لأن مجرد الانتظام في دار عبادة، وتغيير الـزي، وحفظ نصوص مقدسة، يخول صاحبها إلى تبوّأ سلطة واحتراماً يفوق التعامل مع بقية البشر، أو ممارسة أفكار اعتدنا على وجودها في كل أمور الحياة دون إدراك معناها وجوهرها، وبدون إعطاء أنفسنا فرصة للتفكير والمراجعة وتفعيل العقل الذي ميز به الإنسان دوناً عن غيره من المخلوقات، وإلا سنشكو الخوف من التقدم دون أن نعرف مصدره ولا الحدود التي تحول دون تحقيق الفهم والاطمئنان إلى قناعاتنا، والخشية من مصير آخرين قرروا التقدّم وتراجعوا لأنهم شاهدوا تصنيفاً وعقاباً أو سمعوا به فآثروا السلامة صامتين.

الطبيب الراهب الشاعر هيبا

لكل داء دواء، ولكل مشكلة حل، أعني لمعظم الادواء أدوية، ولأغلب المشاكل حلول. هذا ما قاله هيبا في بداية مشواره نحو الرهبنة، إلا ما طال الخلافات بين الكنائس، فمنذ أن حلت الاختلافات بينها حول طبيعة المسيح وهو جوهرالديانة المسيحية أصبح الانشقاق والفرقة، ومن ثم الاقتتال سبباً للتفكير ومن ثم التفسيروالتدبير، فذهبت ريحهم، وحلت الخلافات بينهم، وأصبح التربص لكل مذهب بالاخر ديدنهم، وكل يرى رأيه الأصوب وتفسيره الأنسب، وفهمه الاوفر، ويحشد حوله الأساقفة والقساوسة والرهبان وزعماء الكنائس والصعاليك لتدعيم رأيه وفرضيته وفرصته للنجاة مستندا إلى النصوص من الأناجيل الأربعة.

حميد الملا

(عزازيل)، رواية ليست كباقي الروايات، ملحمة تاريخية بطلها –هيبا– الطبيب والراهب والشاعر أيضاً، الذي يجيد أربع لغات: اليونانية والعبرية والقبطية والآرامية، دارس للمنطق وكتاب التاسوعات لأفلوطين، وهو محب للكتب، ويقتني منها الكثير وعلى الأخص الممنوعة منها والمحجوبة عن العامة، والمتيسرة للقلة من المؤمنين المسيحيين.

واسم هيبا ما هو إلا النصف الأول من هيباتيا عالمة كل العصور كما كانت تسمى واستاذة الزمان كما توصف، بعد أن قُتلت شرّ قتله على أيدي الرعاع والصعاليك من الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بسبب آراؤها الفلسفية ونبوغها في الرياضيات وعلوم الفلك.

يقول يوسف زيدان على لسان هيبا: (أراها أمامي وقد وقفت على منصة الصالة الفسيحة، وكأنها كائن سماوي هبط الى الأرض من الخيال الإلهي ليبشر الناس بخير رباني رحيم. كانت لهيباتيا تلك الهيئة التي تخيلتها دوما ليسوع المسيح، جامعة بين الرقة والجلال. في عينيها زرقة خفيفة ورمادية، وفيها شفافية. في جبهتها اتساع ونورسماوي، وفي ثوبها الهفهاف ووقفتها، وقار يماثل ما يحف بالالهة من بهاء..)، فهيباتيا باللغة اليونانية تعني السامية، وهي مصداق لمعنى اسمها، فسمو الاخلاق والنبوغ والقدرة على الإقناع والعلم الموسوعي هي من صفاتها، وهي التي تقول: (الحقائق التي نصل إليها بالمنطق والرياضيات، إن لم نستشعرها بأرواحنا، فسوف تظلّ حقائق باردة، أو نظل نحن قاصرين عن إدراك روعة إدراكنا لها).

قتلت هيباتيا العالمة الجميلة في العام 514م وسحلت جثتها ومُثّل بها وأحرقت بسبب اتهامها بالسحر، وبصناعة الآلات الفلكية لأهل التنجيم والمشعوذين ولهذا ناصب العداء لها بابا الإسكندرية كيرلس آنذاك، وشجّع على قتلها من خلال خطبه الحماسية الرنانة ليقوم بطرس القارئ وأعوانه من الرهبان وصعاليك المسيحيين المتوحشين بهذه المهمة الشريرة.

ماتت هيباتيا أستاذة الزمان النقية القديسة، كما يذكر زيدان في الرق التاسع من روايته (عزازيل)، وهي الربة التي عانت آلام الشهيد، وفاق عذابها كل عذاب، وفي كل عصر وزمان، وفي كل الأديان، وكما في كل مكان يقتل العلماء والمفكرون ويتهمون بالهرطقة والزندقة والكفر والالحاد عندما يختلفون ويشذون عن طوق الحاكم أو من من يعتبرون أنفسهم ممثلي الله على الأرض من أصحاب الديانات المختلفة.

كاد الراهب هيبا بعد ما هاله من فزع ورعب بعد مقتل هيباتيا أن يهجر الرهبنة ويعود إلى بلدته نجع حمادى الواقعة بأطراف بلدة أسوان جنوب مصر، "فالاغتصاب والعنف ينتصران أمام عيني، والخصام والنزاع يسودان كل مكان"، كما يقول.

الراهب المصري الأصل في رواية "عزازيل" يقوم بتدوين سيرة حياته القلقة، وتاريخ تلك الأحداث وتقلبات زمانه المضطرب بعد تمكنه من ترجمة الرقوق الواردة إليه من شمال غرب حلب، وهي في حالة جيدة ومكتوبة باللغة السريانية القديمة (الأرامية) إلى العربية، وكان ذلك في القرن الخامس الميلادي وعلى وجه التحديد في العام 1555م كما ورد في مقدمة المترجم. وكما يقول زيدان عن لغة الراهب هيبا: (تعبيراته الرهيفة، البليغة والصور الإبداعية التي تتوالى في عباراته، مؤكدة شاعريته وحساسيته اللغوية، وإحاطته بأسرار اللغة السريانية التي كتب بها)، كما أن هذه الرقوق كما ورد في الرواية ثلاثين رقاً، وهى متفاوتة في الحجم، في الطول أو القصر.

وكثيراً ما راود هيبا الاحلام في تطوافه، فكما يقول أمبرتو إيكو في روايته الجميلة "اسم الوردة": (الحلم كتابة، والكثير من الكتابات ماهي الا أحـلام)، فقد دوّن الراهب هيبا هذه السيرة في العام 431م وهى السنة المشؤومة، كما يطلق عليها، بسبب حرم وعزل الأسقف نسطور نتيجة للخلافات شديدة الوقع بين الكنائس، حيث كان اللقاء بينه والأسقف نسطور في أورشليم. فنسطور المبجل كما يشير إليه في أكثر من موضع هو المعلم والملهم والناصح والحامي والصديق لهيبا الراهب، فلا غضاضة أن يدافع عنه وعن أفكاره في خلافه مع الكنيسة المرقسية في الإسكندرية والاسقف كيرلس الذي عمل جاهدا لعزله عن اسقفية إنطاكية ومن ثم حرمانه من الرعاية الكنسية وتحقق له ذلك بعد أن أقرّ المجمع المقدس برئاسة الامبراطور، بإعادة كيرلس لرتبته الأسقفية وأقرّعزل نسطور ونفيه بعد

أن تخلى عنه الأساقفة المناصرين لآرائه، مما هيأ للمجمع المقدس أن يصيغ قانونا جديدًا للايمان فيه إضافات على القانون الذي أقرّ قبل مائة عام في نيقية، كما ورد في الرق التاسع والعشرين .

في رحلته المريرة من بلدته نجع حمادي إلى الإسكندرية ومن ثم أورشليم القدس واستقراره النهائي ومحطته الأخيرة بعد أن تعب من الترحال الدائم، التقط أنفاسه في الدير الواقع شمال حلب، لأنه يقع في منطقة خضراء هادئة، في أعالي تلة ويعود بنائه إلى ما قبل الرومان، كما يذكر الراهب هيبا، وكان مبنى الدير معبداً في الزمن الغابر لإله الخصب والمراعي ولربة الحقول، (كانت أيامي الأولى في الديرهادئة، هانئة أمضيت أوقاتي في القراءة والعبادة، فسكنت روحي).

وكما يقول يوسف زيدان في روايته المبهرة "فردقان": (الرجال مهما كانوا حكماء فإنهم لايبرءون من الطيش الطفولي، فإن الراهب هيبا كانت له مغامراته البريئة أيضاً، فمنذ أن وطـأت قدماه الإسكندرية وتحت غوايات أوكتافيا وقع في المحظور ليقول عنها: أنا ما رأيت قبلها أجمل، ولا أرق، ولا ألطف. أوليست وهي الوثنية، أنقى قلبا وأصفى روحاً من أغلب المسيحيات اللواتي عرفته؟).

فعلى الرغم من حلمه الكبير في النبوغ في الطب واللاهوت، إلا إن مشروعه كاد أن يتعثر بسبب تلك المرأة وغواياتها له (كان جانبا مني يريدها، ويحب ذكاءها ورائحة جسمها. نعم كانت أوكتافيا ذكية، زكية، شهية. لكنني ضيعتها وضيعتني، مرتين) ..

وبقدرة قادر تخلّص من أوكتافيا ليواصل مشوارة وهدفه، رغم تلك العثرات والمطبات، ليسقط مرة أخرى في مستنقع الغرام ويحترق بنار مرتا اللاهبة.

مرتا كلمة قديمة تعني السيدة: (شعرها بحسب ما بدا من أطرافه المنفلتة من غطاء رأسها، كحاجبيها فاحم السواد، ولامع براق 00مرتا آية من آيات الجمال الإلهي في الكون، في وجهها طفولية ونزق، وفيه بهاء صورة العذراء ، غير أن نظرتها جريئة جداً، ومربكة لمن هو مثلي، لسعتني نظرتها، وروعني جمالها، حتى كاد يغمى على من جلال الجمال 00).

كاد أن ينهي مشواره وينتهي مع تلك المرأة لولا تشدد التعاليم الدينية لمن يود الرهبنة، فانتهى لمقولة من إنجيل متى: "من يتزوج مطلقة، فهو يزني"، وبذك فرّت منه رغم حبها الجارف له، وأصبح في وضع مزرٍ، لاحقته الهموم وعصفت به الأقدار بعد عزل نسطور ونفيه.

عزازيل ...أي أبليس، الشيطان، أهريمان، يلعزبوب، بلعزبول، كلها مترادفات تعني نقيض الله المألوه الذى عرفناه بالخير المحض، فعزازيل مبرر الشرور.

من لم يقرأ هذه الرواية قد يعجز عن فهم ما يجري داخل الكنائس المسيحية من خلافات، وما يحدث فيها من نقاشات وصراعات، ففيهم القديسون الأتقياء، والهراطقة المسوسون، فيهم الاتقياء النجباء وفيهم الأدعياء، الصادقون والمكذوبون، النافعون والمخلصيو لديانتهم والمتكسبون من تدينهم، والصالحون والطالحون، كما هي حال كل الأديان والاعتقادات لا تخلو من هؤلاء وأولئك، ويبقى الانسان حمّال أوجه، ويبقى هيبا الطبيب الشاعرصادقاً قبل أن يكون راهباً.

مرقد السلام

تتهادى في مشيتها بين القبور، تأنُّ من وجع الفراق وهي تتخطى الأشواك التي زرعتها المقبرة بقدميها المكسورتين واللتين مزقتهما الحياة رغم صغر سنها، «تمردغ» بقدميها رمال المقبرة الملتهبة. تملأ نعليها رمال ممزوجة بالحصى. لا تكترث بتضاعف الألم من الأشواك والحصى الحادة في قدميها.

تسقط قبل الوصول إلى القبر المطلوب فيسيل الدم من فمها وتجرح يدها اليمنى، تحاول أن تبكي تلبية لنداء طفولتها، ولكن لا دموع تسقط ولا صوت يستطيع أن يصرخ من حنجرتها الصغيرة الملتهبة.

بخطوات صغيرة وكبيرة في سرّها تصل إلى القبر المطلوب، تتعثر وتسقط على وجهها المنكمش المليء بكدمات غيبت ملامح وجهها، رائحة الدم التي سالت من فمها غيبتها لصورٍ مرّت أمامها بلمح البصر، لعب، صراخ، حب، دماء، سكين، جري ومشنقة ! تستيقظ مذعورًة بعد نوبة بكاء ينقذها بها أحدهم بإبريق من الماء البارد، تفيق تشهق بقوة وتدخل في نوبة بكاء حادة.

صور الدم والصراخ المخيف الممزوج بالحب والبراءة تجعلها تحتضر لتجد نفسها في ذلك البستان الأخضر الذي صنع بصمة جميلة في قريتها الصغيرة هناك بعيداً عن ضجيج البشر وبعيداً أيضا عن المناظر الصناعية التي صنعها الإنسان ليمتد بظلاله إلى آخر القرية. أستغل الأطفال لعبهم في هذه البقعة الجميلة حيث لا شمس حارقة ولا ضجيج يعكر صفوهم. ضحكاتهم البريئة ضاعفت جمال المكان.غنائهم وموسيقى تغريد العصافير جعلت الأشجار ترقص رغم بشاعة ما حولها من حياة مختلفة. الفتيان والفتيات حيث الحب والنقاء والبراءة فقط، انهمكوا في اللعب بتعدد اجناسهم وألوانهم يلعبون بحب بعيداً عن تهكمات المجتمع دون الاكتراث بما يضجّ به المجتمع من عنصرية الجنس واللون، وقبح العادات والتقاليد التي تقتل الجمال، بل كانت الضحكات ممزوجة بالأبيض والأسود والطفل والطفلة.

زينب إسماعيل

اخدتهم لعبة (السكونة) التي رسموها على التراب الأحمر إلى عالم مختلف عما حولهم، عالم مليء بالحب فقط، كانوا يلعبون بأرواحهم ورغم تساقطهم على بعضهم أحيانا، إلا أن أرواحهم الملائكية تنسيهم آلام السقوط والجروح فور سقوطهم .

فجأة علا صراخ هزّ قلوب الأطفال وعكّر جوهم المرح، وحتى الأشجار نكست رؤوسها من خجل قطع فرحة الأطفال، غاب تغريد العصافير وحلّ مكانه فقط صوت القلوب المهتزة الذي أظلم المكان.

لم يخطر في أذهان الأطفال أن حوادثهم العفوية في اللعب كفيلة بأن تقتل فرحتهم بل وأن تمزق قلوبهم وأرواحهم. ولكن حين تغيب الرحمة عن قلب الإنسان تظلم روحه فلا تهمس نفسه إلا بعفن الحياة. فلا رحمة من إنسان هيمنت على مسامعه أصوات شياطين المجتمع وهو يرى طفل الخامسة قد سقط سهوا على طفلة السابعة "العفة، الشرف، السمعة، شرف العائلة، الفسق والفجور. "لا تفسد الفتاة إلا من جذورها". كل هذه الكلمات رنّت في اذنه ليعمي الغضب بصيرته، وهو يصرخ كالشيطان في أوجه الأطفال الذين تعالت أصواتهم خوفا من الدماء التي طالت ملابسهم البيضاء، وحتى أصوات العظام التي كسرت لتبقي على مسامعهم طوال أعمارهم حكاية فاجعة سيعيشون تفاصيلها .

"الرحمة تبقي القلب نابضا". غياب جسدها تدريجيا عن الوعي لم يمنع قلبها أن يخفق خوفا على والدها الذي لوثت لحيته الكثيفة دماءها النقية وهي تراه معلقا بالحبل السميك على شجرة الزيتون "سيخنقك الحبل يا أبي".

تفتح عيناها، الظلام يسيطر على المكان، تزيح الرمال من على جسدها النحيل، تخرج من مرقدها المظلم، تمشي سريعاً، تتعثر بمشيتها، تمزق قدميها الأشواك، تسقط على القبر. تغيب في نوبة بكاء حادة، يوقظها الماء البارد، تمسح دمعتها البريئة: «هل ما زال الحبل يخنقك يا أبي ؟.». لا إجابة إلا صوت أنين نابع من القبر، تمسح دمعتها وتغادر إلى قبر سلامها المظلم.

قصة قصيرة

ضاع منه ظله ولم يجده

كان يُشاهد يوميًا منذ سنوات طويلة، وهو يجلس على الدوّار المقابل لمسجد البلوش بفريق العوضية. وحيدًا يُدخّن سيجارة وراء سيجارة. متوترًا على الدوام كما كان يبدو من حركاته. يجلس ساعة أو ساعتين وفجأةً ينهض متوجّها بخطوات سريعة إلى منزله القريب، دون أن يلتفت أو ينظر إلى أحد. كان هذا دأبه كل يوم كأنه بجلسته على ذلك الدوّار يفرغ بعضًا مما بداخله من عواصف، ربما براكين لا يعلم بها أحد غيره. كان الجميع يتساءل عن سر هذا الرجل، وظنَّ البعض أنه إنسانٌ فقد عقله.

عبدالحميد القائد

وحيدًا كان. حزينًا حتى الفجيعة. كأنه خرج من الدنيا وهو ما زال فيها. يقولون إنه عشق إمرأةً غير عربية من دولة مجاورة وقرر أن يجلبها معه الى البلاد في بانوش (سفينة شراعية صغيرة)، وعندما وصلا إلى الفرضة (الميناء) لم يُسمح لها بالنزول لأسباب غير معروفة، فعاد معها إلى بلادها، وهناك قبضوا عليه وأودعوه السجن ولا أحد يعرف السبب الحقيقي، يقول البعض إنها أسباب سياسية.

شاهده أحد المواطنين في السجن مصادفةً عندما قبضوا عليه أيضًا، لكن حسن ابتسم له ولم ينطق بحرف على الرغم بأنهما يعرفان بعضهما جيدًا من قبل. قال زملاؤه في السجن المذكور إنه مُضرب عن الكلام، ولكن يبدو أن تفسيرهم لصمته لم يكن دقيقًا، بل الحقيقة أن حالته المزرية كانت بسبب جلسات التعذيب الوحشية التي تعرّض لها في ذاك البلد الغريب كما قال البعض.

يصف أحدهم كيف تعرّف على تلك المرأة فيقول بأن حسن كان جالسًا يومًا في المقهى وحده في تلك البلاد الغريبة. جاءت أمرأة فائقة الجمال، مفرطة الأنوثة، شعرها بني غامق ينسدل على كتفيها مثل نهرين، ترتدي نظارة سوداء فاخرة. جلست المـرأة على الطاولة المواجهة له بالضبط. لم يلحظها حسن أو ربما كان سارحًا، غارقًا في أمور أخرى تشغله أكثر. فهو إنسان جاد وقليل الإبتسامة. وضعت المرأة سيجارة في فمها وأشرّت عليه لكي يشعلها لها، لم يهتم ولم يتحرك من طاولته بل أدار رأسه إلى الجهة الأخرى. بعد قليل أقبلت عليه وطلبت منه أن يشعل لها السيجارة، فأعطاها الولاعة ولم يكلف نفسه عناء إشعال سيجارتها. شكرته وعادت إلى طاولتها، وبعد قليل شاهدته يشعل سيجارته فتوجّهت إليه وطلبت ولاعته.

– أنا متأسفة سيدي أزعجتك.

– لا أبدًا، لو كانت معي ولاعة إضافية لما ترددت في اعطائها لك.

– يبدو أنـك لست من هنا كما يبدو من لهجتك.

– نعم أنا من بلد عربي.

عند مغادرتها طاولته، اصطدمت بزاوية الطاولة فانسكبت القهوة على ملابس حسن وتلطخ قميصه الأبيض وبنطاله. وقفت واضعة كفيها على خديها معربة عن أسفها الشديد. طلبت منه أن ينتظر لحظات. هرعت تلك السيدة إلى البوتيك المجاور للمقهى واشترت له قميصًا أبيض. دخل حسن إلى حمّام المقهى فيما جلست هي على طاولته. خرج بعد قليل مرتديا القميص الجديد وكان بمقاسه تمامًا. شكرها فيما هي كررت أسفها وندمها على ما حدث.

– بكم اشتريتِ القميص سيدتي؟

– لا.يهم سيدي أنا الذي لطخت قميصك ومن واجبي اصلاح ما حدث.

– لا..لا أنا لا أقبل ..أرجوك أخبريني بالثمن.

– انتهينا يا .....؟

– حسن.

– أنا ليلى.

من هنا يبدو أن العلاقة بينهما قد بدأت. أو بهذه الطريقة تعرفت عليه تلك المرأة بخطة ذكية ومتقنة. ربما هذا من وحي خيال الراوي أو ربما هي الحقيقة. لا أحد يعلم.

تقول الحكاية أيضًا إن المرأة التي عشقها وحاول إدخالها إلى البلاد كانت مدسوسة عليه من السلطات الأمنية في بلادها لتراقبه مع رفاقه. حكاية أخرى تقول إنه توجّه إلى ذلك البلد في الأصل للبحث عن أحد الرفاق المفقودين الذي انقطعت أخباره منذ فترة في تلك البلاد الغريبة.

حكاية غامضة نسبيًا، وربما كل ما قِيل صحيحًا أو بعضه صحيح، لا أحد يجزم أو ينفي فجميع الشهود رحلوا، ومضى حسن دافنًا السر معه تحت الـتراب إلى الأبـد. لكن صورته وحركاته لا تفارق مخيلة أصحاب ذلك الحي على الرغم من مرور سنوات طويلة على الحدث.

الحكاية كلها مزروعة فينا، ترتعش في داخلنا، كالغربة تمامًا حين نعيشها، عاد حسن إلى الوطن، لكن بقي ظله مفقودًا في بلاد غريبة، ويقال أيضا إن ظله أيضا اسمه حسن، فهل نضيع حين نضيع مهما كانت طريقة الضياع، لا يهم!!

سوسن حسن

حفل غداء على قارب

تأملوا اللوحة جيداً. ماذا ترون؟ مَن هم يا ترى هؤلاء الأشخاص؟ ماذا يفعلون؟ حدّقوا في معالم وجوههم قليلاً.

سترونهم باسمين، ضاحكين، فالبعض منهم منهمك بمحادثة الآخر بتفاعل لافت. والبعض الآخر مشغول بمحاكاة الطبيعة الفرحة من حوله. ما يعطي وحدة كبيرة وحضورًا كبيرًا للوحة بأكملها ليس هو النساء، دعنا نقول ذلك، وإنما النظرة التي تربط الشخصيات في التكوين.

جميل كم التضاد بين الأزرق والأحمر والأخضر الذي يعكس أسلوب الفن الانطباعي، أو قبعات القش الصفراء التي تخطف عين المشاهد لتذكره بجو الصيف المشمس. يمتد البعد البؤري إلى نقاط عدة في اللوحة ليشمل المظلة المخططة التي تضفي حميمة على المشهد، أو الأشجار الحاضنة للحضور بجوّها الباهي. سهل على المشاهد الضياع في تفاصيل هذه اللوحة، فكل الألوان موجودة، وكل الحضور مشغول بعمل ممتع ما.

تلك هي لوحات رينوار الإنطباعية. هذه اللوحة التي أسماها الفنان في الأساس: «غداء مرتدي القبعات»، تحكي قصة مجموعة من الأصدقاء العائدين من رحلة على متن قارب، و اجتماعهم حول مائدة غداء عطلة نهاية الأسبوع الخالية عادة من الهموم. إن تفكّرنا قليلا، لأدركنا أنه من الطبيعي أن يثمر عن اجتماع البشر راحة نفسية وشعور عميق بالطمأنينة، ذلك لأن المرء لا يستطيع الفرح لوحده، لاحتياجه إلى الآخر لخلق شعور السعادة وتعميمه.

رسم الفنان الفرنسي بيير أوغست رينوار هذه اللوحة في العام 1881، ليعكس التغيير الذي طرأ على مجتمعه إبان الثورة الصناعية، حيث نجد في هذه اللوحة اشتياقاً لبساطة الحياة وعفويتها، زد على ذلك شغفاً بتصوير الملامح البشرية والمشاهدات من الحياة العامة السعيدة، وكأنما رينوار يعانق مخيلته ليذكرنا بحلاوة غداء نهاية الأسبوع مع الأحباب.

ولادة رينوار على مشارف نهاية القرن التاسع العشر ومعاصرته بداية القرن العشرين جعله يعيش حربين، عانت خلالهما الإنسانية من انعدام روحها، ومن تلاشي قيم السلام والحب والتسامح، أي كل العوامل الأساسية التي تجلب السعادة للبشر. لهذا السبب، رفض رينوار خلال كل مسيرته الفنية إدخال آثار التوترات السياسية والمجتمعية على لوحاته، معللاً ذلك بأن الفن انبثق لإعطاء البشر ما لم يستطيعوا اهدائه لأنفسهم: السعادة والسلام. الفن وظف لجعل الحياة أفضل، لخلق مأوى آمن للحب والشغف، حيث المخيلة تستطيع أخذ قسط من الراحة بعيداً عن اضطرابات الحياة اليومية.

يرجح بأن رينوار، ومن أجل رسم هذه اللوحة، قام بجمع عدد من الأصدقاء من الوسط الفني في مطعم «ميزون فورنيه» العائم. وهو مطعم يعود لصديقه ألفونس فورنيه الذي أنشأه عام 1875 بعدما اشترى قطعة أرض على ضفاف نهر السين لتحويلها لفندق ومطعم. لسوء حظه، أتت الثورة الصناعية لتتخلص شيئا فشيئا من المؤسسات الصغيرة، فهجر المطعم، حتى عادت إليه الحياة مجدداً عام 1999 ضمن مبادرة من عمدة المدينة وبتمويل من جمعية أصدقاء الفن الفرنسي الأمريكي.

بيير أوغست رينوار أضحى أهم الفنانين الانطباعيين الذي بفنه نشر رسالة مفادها الآتي: «لا أحد منا يستطيع تذوق متعة الحياة لوحده، فقد خلقنا جميعا لنتعايش مع بعضنا، وذلك ضمن اتحاد مع الطبيعة الحاضنة لكل البشر».

الجدير بالذكر، أنه من أجل أن يجني رينوار قوت يومه من ممارسة ما يحب، كان يدق أبواب الفرنسيين الأغنياء لرسمهم، مما كان يعطيه جدارة أن يقول: ‹›إن لم يكن الفن مصدر امتاع لي، فإنني بالتأكيد ما كنت لأمارسه‹‹.

مقبلٌ موعد
المهرجان الذي
نكتبُ الآن تاريخه

■ الشهيد سعيد العويناتي

التقدمي

التقدمي العدد 157 ـ ديسمبر 2020 السنة الثامنة عشر SDPA 499

رئيس التحرير: د. حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي ـ سكرتير التحرير: عيسى الدرازي

الموال في الأصل.. نحيب أرملة

شعر: بتول حميد

كان عليّ أن أحتفظ بدموعي..
أن أدعها ترأف بكسرة حناني
بدلاً من إنفاق حزني
على الروايات الكئيبة
والمواويل المجرّحة..
كان عليّ أن أدرك سلفاً
أن لا أحد..
للقلب الدامي تحت القميص المعطر
لا أحد..
للصفحة المكرمشة تحت غلافها
الجلدي؟
لا أحد..
للظل المنتحب تحت شجرته المقطوعة
ربما كان عليّ
أن أعيش حياتي كلها
غارقة بالموسيقى وحدها
كأرجوحة تحت مطر ناعم
بعيدة عن كل شيء
أدور في نشوة بالغة
مثل عاصفة
تخترق الأشياء دون أن يمسها أحد..

****

لا تتحدث عن الليل
وفي فمك..
لم تجف بقايا الحلم القتيل
لم يهرب سرداقك الوحيد من الظلام
لن يمحو حمام الأسى درن القنوط
لن يتماهى بالحنين
كنفخة خالصة من موتٍ رحيم..

لا تتحدث عن الخوف
لم تصحو فزعاً
لتلمس موضع قلبك..
تخدشه أظافر القلق
يقلب بكفيه زئبق السكينة
وهو ينساب من روحك..

لا تتحدث عن الألم
الحبّ المُتعب في محطات الانتظار
لن تشفيه تلويحتك البعيدة
لن يغتسل بالكافور والندم..

****

الفقدان فكرة مرعبة
تخيّل..
أنت تخاف من أن يكسرك القلب الذي
تخاف عليه من الكسر

****

قميصك يطرزه لون الحرب
الـ مزقت الكم الأيمن
ماثلٌ أمامي في صمتٍ مهيب..
أنظر إليه مبتوراً
فألمس ذراعك
وأنظر إلى الكم الأيسر
فتتلاشى ذراعي

****

الموال في الأصل نحيب أرملة؛
أكله الهواء وتَموَج صداه في حانة
شعبية

****

بلى..أحب ثورة الريح
وهي تعانق جذع شجرة وحيدة
لم يأبه لصبر حفيفها أحد..

المواد التي تحمل أسماء كتابها لا تعبر بالضرورة عن رأي المنبر التقدمي

ص. ب: 21461 ت: 17780007 Altaqadomi.bh@gmail.com